5 فصل في مكان الذكر والشكر

مبني الدين على قاعدتين: الذكر والشكر، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 152].

وقال النبي ﷺ لمعاذ: «والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1].

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح. وذلك لا يتم إلا بتوحيده. فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً، هذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته وشكره، متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: 27] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: 38، 39]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ [الحجر: 85].

---

(1) أبو داود (1522)، في الصلاة، باب: في الاستغفار، وأحمد (5/ 245)، والنسائي في الكبرى (9937)، في عمل اليوم والليلة، باب: الحث على قول: «رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» دبر الصلوات، والحاكم في المستدرك (1/ 273) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 5]وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: 36]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12]، وقال: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 97].

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر، يذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهو ـ سبحانه ـ ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره سبب كذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، وللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة[1].

فصل

في فوائد الذكر

❑ **في الذكر نحو من مائة فائدة:**

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يرضي الرحمن ـ عزّ وجلّ.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينوّر الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

---

(1) بدائع الفوائد (174 ـ 176).

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة.

وقد جعل اللَّه لكل شيء سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة اللَّه عزّ وجلّ، فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم.

العاشرة: أنه يورثه المرقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد اللَّه كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، ما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى اللَّه عزّ جلّ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى اللَّه عزّ وجلّ مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه، فعلى قدر ذكره للَّه عزّ وجلّ يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه.

الثالثة عشرة: أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه عزّ وجلّ وإجلاله، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع اللَّه تعالى، بخلاف الغافل، فإن حجاب لهيبة رقيق في قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يورثه ذكر اللَّه تعالى له، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفي بها فضلاً وشرفاً.

وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ منهم»[1].

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس اللَّه

---

(1) البخاري (7405)، في التوحيد، باب: قول اللَّه تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28]، ومسلم (2675/ 1)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر اللَّه تعالى.

تعالى روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟

السابعة عشرة: أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر اللَّه تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغذّ هذا الغذاء سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إحمام نفسي وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه.

الثامنة عشرة: أنه يورث جلاء القلب من صدأته، وكل شيء له صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار.

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

العشرون: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى فإن الغافل بينه وبين اللَّه عزّ وجلّ وحشة لا تزول إلا بالذكر.

الحادية والعشرون: أن ما يذكر به العبد ربه عزّ وجلّ من جلاله وتسبيحه وتحميده، يذكر بصاحبه عند الشدة، فقد روى الإمام أحمد في «المسند» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ما تذكرون من جلال اللَّه عزّ وجلّ من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهُن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به»[1]؟ هذا الحديث أو معناه.

الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرّف إلى اللَّه تعالى بذكره في الرخاء، عرفه في الشدة، وقد جاء أثر معناه: أن العبد المطيع الذاكر للَّه تعالى، إذا أصابته شدة أو سأل اللَّه تعالى حاجة، قالت الملائكة: يا رب صوت معروف، من عبد معروف. والغافل المعرض

(1) أحمد (4/ 268، 271)، وصححه الألباني.

عن اللَّه عزّ وجلّ إذا دعاه وسأله، قالت الملائكة: يا رب، صوت منكر، من عبد منكر.

الثالثة والعشرون: أنه منجاة من عذاب اللَّه تعالى، كما قال معاذ رضي اللَّه عنه. ويروي مرفوعاً: «ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب اللَّه عزّ وجلّ من ذكر اللَّه تعالى»[1].

الرابعة والعشرون: أنه سبب نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبي ﷺ[2].

الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة، والكذب، والفحش، والباطل، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر اللَّه تعالى وذكر أوامره، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر اللَّه تعالى.

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فمن عوّد لسانه ذكر اللَّه، صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر اللَّه تعالى، ترطّب بكل بطل، ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

السادسة والعشرون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليتخيّر العبد أعجبهما إليه، وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

السابعة والعشرون: أنه يسعد الذاكر بذكره، ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أين ما كان، والغافل واللاغي يشقي بلغوه وغفلته، ويشقي به مجالسه.

الثامنة والعشرون: أنه يؤمّن العبد من الحسرة يوم القيامة، فإن كان مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترةً يوم القيامة.

التاسعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال اللَّه تعالى العبد يوم الحرّ الأكبر في ظل عرشه، والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عزّ وجلّ.

---

(1) أحمد (5/ 239).

(2) مسلم (2700/ 39)، في الذكر والدعاء والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

الثلاثون: أن الاشتغال به سبب لعطاء اللَّه للذاكر أفضل ما يعطي السائلين، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[1].

الحادية والثلاثون: أنه أيسر العبادات، وهو من أجلِّها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذلك.

الثانية والثلاثون: أنه غراس الجنة، فقد روى الترمذي في «جامعه» من حديث عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقيتُ ليلة أسرى بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يا محمد، أقْرِئْ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه اللَّه أكبر»[2].

قال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود.

وفي الترمذي من حديث أبي الزبير، عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مَن قال: سبحان اللَّه وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»[3].

قال الترمذي؛ حديث حسن صحيح.

الثالثة والثلاثون: أن العطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال.

ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل

---

(1) الترمذي (2926)، بلفظ: «من شغله القرآن عن ذكري» في فضائل القرآن، باب (25)، وقال: «حسن غريب»، والدارمي (2/ 441)، في فضائل القرآن، باب: فضل كلام اللَّه على سائر الكلام. كلاهما عن أبي سعيد الخدري. وضعفه الألباني.

(2) الترمذي (3462)، في الدعوات، باب (59)، وصححه الألباني.

(3) الترمذي (2464)، في الدعوات، باب (60)، وقال: «حسن صحيح غريب». و (2465) وقال: «حسن غريب».

عمل أكثر منه، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[1].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد، لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»[2].

وفي الترمذي من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك، وملائكك، وجميع خلقك، أنك أنت الله لا إله إلا أنت، وأن محمد عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، ومن قالها أربعاً أعتقه الله تعالى من النار»[3].

وفيه عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، كان حقاً على الله أن يرضيه»[4].

وفي الترمذي: من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيءٍ قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»[5].

الرابعة والثلاثون: أن داوم ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه

---

(1) البخاري (6403)، في الدعوات، باب: فضل التهليل، ومسلم (2691/ 28)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، واللفظ له.

(2) مسلم (2695/ 32)، في الكتاب والباب والسابقين.

(3) أبو داود (5069)، في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، ورواية الترمذي غير الرواية المذكورة وهي بلفظ: «من قال حين يصبح اللهم أصبحنا نشهدك ونشهد عرشك وملائكتك وجميع خلقك بأنك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك، إلا غفر له ما أصاب في يومه ذلك، وإن قالها حين يمسي غفر الله له ما أصاب في تلك الليلة من ذنب».

(4) الترمذي (3389)، في الدعوات، باب ما جاء في الدعوات إذا أصبح وإذا أمسى وقال: «حسن غريب». وضعفه الألباني.

(5) الترمذي (3428)، في الدعوات، باب: ما يقول إذا دخل السوق، وقال: «غريب».

ومصالحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: 19].

وإذا نسي العبد نفسه، أعرض عن مصالحها ونسيها، واشتغل عنها، فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه، واشتغل عنه بغيره، وضيع مصالحه، فإنه يفسد ولا بد.

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها، واشتغل عن مصالحها، وعطل مراعاتها، وترك القيام عليها بما يصلحها؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك، ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر اللَّه تعالى واللهج به، وألا يزال اللسان رطباً به، وأن ينزله منزلة حياته التي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة السكن في شدة الشتاء والسموم.

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر اللَّه منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟ هذا هلاك لا بد منه، وقد يعقبه صلاح الأبد، وأما هلاك القلب والروح، هلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها، لكفي بها فمن نسي اللَّه تعالى أنساه نفسه في الدنيا، ونسيه في العذاب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: 124 ـ 126]، أي تنسى في العذاب كما نسيت آياتنا: فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها.

وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، وهو كتابه، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه، وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه، ونعمه فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذكر في الآية إما مصدر مضاف إلى معموله الذي هو المذكور، وإما اسم مضاف إلى الفاعل، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة،

أي: من أعرض عن كتابي ولم يتله، ولم يعمل به، ولا فهمه، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذباً فيها.

والضنك: الضيق والشدة والبلاء. ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ، والصحيح: أنها تتناول معيشته في الدنيا وعذابه في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين، وهو شدة وجهد وضيق. وفي الآخرة ينسى في العذاب.

وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]؛ فهذا في الدنيا، ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، فهذا في البرزخ والآخرة. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: 41]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فهذا في الدنيا، قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: 3]، فهذا في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: 10].

فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاءً في الدنيا، وجزاءً في الآخرة. فالإحسان له جزاءٌ معجَّل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد.

ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن: من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره، ولذته بمعاملة ربه عزّ وجلّ، وطاعته، وذكره ونعيم روحه بمحبته وذكره، وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطنه.

وما يجازي به المسيء: من ضيق الصدر، وقسوة القلب، وتشتته، وظلمته، وحزازته، وغمه، وهمه، وحزنه، وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق: عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته: ثواب عاجل، وجنة، وعيش لا نسبة لعيش

الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13].

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله عنا وينقلب انشراحاً قوة ويقيناً وطمأنينة.

فسبحان مَن أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره، أو نحو هذا.

وقال آخر: إنه لتمرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

فمحبة اللَّه تعالى، معرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا، والنعيم الذي يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين.

وإنما تَقَرُّ أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم باللَّه عزّ وجلّ، فمن قرت عينه، باللَّه قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه باللَّه، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وإنما يصدق بهذه الأمور من في قلبه حياة، وأما ميت القلب، فيوحشُك ما له، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك، وترحَّل عنه بقلبك، وفارقه بسرك، ولا تشغل به عما هو أولى بك.

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من اللَّه عزّ وجلّ، وانقطاعك عنه وضياع وقتك عليك وشتات قلبك، وضعف عزيمتك، وتفرق همك.

فإذا بليت بهذا ـ ولا بد لك منه ـ فعامل اللَّه تعالى فيه، واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرب إلى اللَّه تعالى بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به متجراً لك، لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقَّفه عن سيره، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به، فتحمله ولا يحملك، فإن أبى ولم يكن في سيره مطمع، فلا تقف معه بل اركب الدرب، ودعه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان، فانج بقلبك، وضن بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة، فتؤخذ أو يطلُعُ عليك الفجر وأنت في المنزلة، فتسير الرفاق فتصبح وحدك، وأنى لك بلحاقهم.

الخامسة والثلاثون: أن الذكر يسيِّر العبد وهو قاعد على فراشه، وفي سوقه، وفي حال صحته وسقمه، وفي حال نعيمه ولذته، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه وسفره وإقامته،

فليس في الأعمال شيء يعم الأوقات والأحوال مثله، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه، فيسبق القائم مع الغفلة، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه، ويصبح ذلك القائم الغافل في ساقه الركب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وحكي: عن رجل من العُباد أنه نزل برجل ضيفاً، فقام العابد ليله يصلي، وذلك الرجل مستلق على فراشه، فلما أصبحا قال له العابد: سبقك الركب، أو كما قال، فقال: ليس الشأن فيمن بات مسافراً وأصبح مع الركب، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب.

وهذا ونحوه له محمل صحيح، ومحمل فاسد، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت، فهو باطل، وإنما محمله أن هذا المستلقي على فراشه علق قلبه بربه عزّ وجلّ، وألصق حبة قلبه بالعرش، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة، قد غاب عن الدنيا ومن فيها، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه، أو غير ذلك من الأعذار، فهو مستلق على فراشه، وفي قلبه ما الله تعالى به عليم.

وآخر قائم يصلي ويتلو، وفي قلبه من الرياء والعجب، وطلب الجاه، والمحمدة عند الناس، ما الله به عليم، أو قلبه في وادٍ، وجسمه في وادٍ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة، فالعمل على القلوب، لا على الأبدان، والمعوّل على الساكن، لا على الأطلال، والاعتبار بالمحرك الأول، فالذكر يثير العزم الساكن، ويهيج الحب المتواري، ويبعث الطلب المبيت.

السادسة والثلاثون: أن الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]. فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر هو الغافل عن الله تعالى، المعرض عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن، والفلاح كل الفلاح، في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته.

ولهذا كان النبي ﷺ يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه، وعظامه، وعصبه، وشعره، وبشره، وسمعه، وبصره، ومن فوقه، ومن تحته، وعن

يمينه، وعن شماله، وخلفه، وأمامه، حتى يقول: «واجعلني نوراً»[1]، فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته، وجملته نوراً.

فدين اللَّه عزّ وجلّ نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه.

وفي دعاء النبي ﷺ يوم الطائف: «أعُوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[2].

وقال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه، وفي بعض ألفظ هذا الأثر: نور السموات من نور وجهه، ذكره عثمان الدارمي، وقد قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: 69].

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده، وأشرقت بنوره الأرض، وليس إشراقها يومئذٍ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكوّر، والقمر يخسف، ويذهب نورهما، وحجابه تبارك وتعالى النور.

قال أبو موسى؛ قام فينا رسول اللَّه ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ولكنه يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سَبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[3].

---

(1) مسلم (763/ 187)، في صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(2) الطبراني في الكبير (25/ 346)، وقال الهيثمي في المجمع (6/ 35)، في المغازي والسير، باب خروج النبي ﷺ إلى الطائف وعرضه نفسه على القبائل: «فيه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات».

(3) مسلم (179/ 293)، في الإيمان، باب: في قوله: «نور أني أراه»، وابن ماجه (195)، في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأحمد (4/ 405).

ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: 8].

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره.

ولهذا لما تجلَّى تبارك وتعالى للجبل، وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً، ساخ الجبل في الأرض، وتدكدك، ولم يقم لربه تبارك وتعالى.

وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103] قال: ذلك اللَّه عزّ وجلّ، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء.

وهذا من بديع فهمه رضي اللَّه تعالى عنه، ودقيق فطنته، كيف لا؟! وقد دعا له رسول اللَّه ﷺ أن يعلمه اللَّه التأويل.

فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وإن رأته، فالإدراك أمر وراء الرؤية، وهذه الشمس وللَّه المثل الأعلى نراها ندركها كما هي عليه، ولا قريباً من ذلك، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فقال: ألست ترى السماء قال: بلى، قال: أفتدركها؟ قال: لا، قال: فاللَّه تعالى أعظم وأجل.

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور في قلب عبده مثلاً لا يعقله إلا العالمون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35].

قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم.

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم، فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته، فتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكرون، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا، فمنهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجم،

وآخر كالسراج، وآخر يعطي نوراً على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفأ أخرى، إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً، لا باطناً، أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب.

وضرب اللَّه عزّ وجلّ لهذا النور، ومحله، وحامله، ومادته مثلاً بالمشكاة، وهي الكُوّة في الحائط، فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج، وحتى شبّهت بالكوكب الدُّرِّيّ في بياضه وصفائه، وهي مثل القلب، وشبهت بالزجاجة؛ لأنها جمعت أوصافاً هي في قلب المؤمن، وهي: الصفاء، والرقة، والصلابة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة، والشفقة برقّته، ويجاهد أعداء اللَّه تعالى، ويغلظ عليهم، ويشتد في الحق، ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى، ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73].

وفي أثر: «القلوب آنية اللَّه تعالى في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وبإزاء هذا القلب مذمومان في طرفي نقيض. أحدهما: قلب حجري قاسٍ لا رحمة فيه، ولا إحسان لا برّ، ولا له صفاء يرى به الحق، بل هو جبار جاهل. لا عالم بالحق. ولا راحم بالخلق. وبإزائه قلب ضعيف مائي، لا قوة فيه، ولا استمساك، بل يقبل كل صورة، وليس له قوة حفظ تلك الصور، ولا قوة التأثير في غيره، وكل ما خالطه أثر فيه، من قوي وضعيف، وطيب خبيث. وفي الزجاجة مصباح، وهو النور الذي في الفتيلة، وهي حاملته، ولذلك النور مادة، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار، فهذه مادة نور المصباح.

وكذلك مدة نور المصباح الذي في قلب المؤمن، هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها من الانحراف، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف النصرانية، ولا انحراف اليهودية، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار، فاشتدت بها إضاءته، وقويت مادة ضوء النار به، كان ذلك نوراً على نور.

وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي، فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته، فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، فصار نوراً على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثراً، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته، فيكون نوراً على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة.

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة، ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة، فذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض، ونوره في قلوب عباده المؤمنين، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذي استنارت به البصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي، فهما نوران عظيمان، أحدهما أعظم من الآخر، وما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع، لم يعش فيه آدمي ولا غيره؛ لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور، لا يعيش فيها حيوان، ولا يتكون البتة، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد، لا حياة له البتة، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه.

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52].

وقد قيل: إن الضمير في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ عائد إلى الأمر، وقيل: إلى الكتاب، وقيل: إلى الإيمان، والصواب: أنه عائد إلى الروح أي: جعلنا ذلك الروح الذي أوحيناه إليك نوراً: فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح، وجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح، فهو ميت مظلم، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل.

فلهذا يضرب سبحانه وتعالى المثلين: المائي والناري معاً، لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الإشراق والنور، كما ضرب ذلك في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: 17]، وقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بنارهم؛ لأن النار فيها الإحراق والإشراق، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق.

وكذلك حال المنافقين: ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم، وقلوبهم قد صليت بحرّها وأذاها وسمومها ووهجها في الدنيا، فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة ناراً موقدة تطّلع على الأفئدة.

فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان في الدنيا، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر، وأقر ثم جحد، فهو في ظلمات أصم أبكم أعمى، كما قال تعالى في حق إخوانهم من الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: 39] وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: 171]، وشبه تعالى حال المنافقين في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله؛ لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم، وصيامهم معهم، وسماعهم القرآن، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره، قد شاهدوا الضوء، ورأوا النور عياناً؛ ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18] إليه، لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا، فهم لا يرجعون إليه.

وقال تعالى في حق الكفار: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم لم يعقلوا الإسلام، ولا دخلوا فيه، ولا استناروا به، بل لا يزالون في ظلمات الكفر، صم بكم عمي، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً، وإلى طريق الرشاد هادياً. لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً من غيِّها خالية، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات، فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة، فأغلقت أبواب رشدها، وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل، فلم تصغ بعده إلى الملام، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة

والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة، وأسر الهوى والشهوة، و«ما لجرح بميت إيلام».

والمثل الثاني المائي: قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: 19]. الصيِّب: المطر الذي يصوب من السماء، أي: ينزل منها بسرعة، وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، فأدرك المؤمنين ذلك منه، وعلموا ما يحصل به من الحياة التي لا خطر لها، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق، وهو الوعيد والتهديد، والعقوبات والمثلاث التي حذر الله بها من خالف أمره، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ﷺ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة، كجهاد الأعداء، والصبر على اللأواء، أو الأوامر الشاقة على النفوس التي هي بخلاف إرادتها، فهي كالظلمات والرعد والبرق، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق، بل يستأنس لذلك، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب.

وأما المنافق، فإنه لعمي قلبه، لم يجاوز بصره الظلمة، ولم يرَ إلا برقاً يكاد يخطف البصر، ورعداً عظيماً ظلمة، فاستوحش من ذلك وخاف منه، فوضع أصابعه في أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد، وهاله مشاهدة ذلك البرق، وشدة لمعانه، وعظم نوره، فهو خائف أن يختطف معه بصره؛ لأن بصره أضعف أن يثبت معه، فهو في ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف، ويرى ذلك البرق الخاطف، فإن أضاء له ما بين يديه مشي في ضوئه، وإن فقد الضوء قام متحيراً لا يدري أين يذهب، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذي به حياة الأرض والنبات، وحياته هو في نفسه، بل لا يدرك إلا رعداً، وبرقاً، وظلمة، ولا شعور له بما وراء ذلك، فالوحشة لازمة له، والرعب والفزع لا يفارقه.

وأما من أنس بالصيِّب، وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفع أنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم، استأنس بذلك ولم يستوحش منه، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب.

فهذا مثل مطابق للصيِّب الذي نزل به جبريل ﷺ من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ ليحيي به القلوب والوجود أجمع، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيِّب من الماء حكمة بالغة وأسباباً منتظمة نظمها العزيز الحكيم.

فكان حظ المنافق من ذلك الصيِّب سحابه ورعوده وبروقه فقط، لم يعلم ما وراءه، فاستوحش بما أنس به المؤمنون، وارتاب بما اطمأن به العالمون، وشك فيما تيقّنه المبصرون العارفون، فبصره في المثل الناري كبصر الخفاش نحو الظهيرة، وسمعه في المثل المائي كسمع من يموت من صوت الرعد. وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة، وظنون كاذبة، جلت فيها وصالت، وقامت بها وقعدت، واتسع فيها مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دويانها، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء، والقابلين منهم، والقائمين بدعوتهم، والمحامين عن حوزتهم، والمقاتلين تحت ألويتهم، والمُكثِّرين لسوادهم عدداً، وما أقلهم عند اللَّه وأوليائه قدراً.

ولعموم البلية بهم، وضرر القلب بكلامهم، هتك اللَّه أستارهم في كتابه غاية الهتك، وكشف أسرارهم غاية الكشف، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم، ولم يزل عزّ وجلّ يقول: (ومنهم... ومنهم... ومنهم...) حتى انكشف أمرهم، وبانت حقائقهم، وظهرت أسرارهم.

وقد ذكر اللَّه سبحانه وتعالى في أول سورة (البقرة) أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات، وفي أوصاف الكفار آيتين، وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجلدة، مظهرون الموافقة والمناصرة، بخلاف الكافر الذي قد تأبَّد بالعداوة، وأظهر السريرة، ودعاك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته.

ونظير هذين المثلين المثلان المذكوران في سورة (الرعد) في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: 17]، فهذا هو المثل المائي، شبَّه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب، بالماء الذي أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له، بالأودية الحاملة للسيل.

فقلب كبير يسع علماً عظيماً كوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً، وقلب صغير كوادٍ صغير يسع علماً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها.

ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغثاء ونحوها مما يمر عليه السيل فيحتمله

السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً يمر عليه متراكباً، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض فبقذف الوادي ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء ويبقى الماء الذي تحت الغثاء يسقي اللَّه تعالى به الأرض فيحيي به البلاد والعباد، والشجر والدواب، والغثاء يذهب جفاءً يجفي، ويطرح على شفير الوادي.

فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله من السماء في القلوب فاحتملته، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة، فطفا في أعلاها، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب وهو أصله ومستقره، كما قال النبي ﷺ: «نزل الإيمان في جذر قُلُوب الرجال» رواه البخاري من حديث حذيفة، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاءً، ويزول شيئاً فشيئاً، حتى يزول كله، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب يرده الناس، فيشربون ويسقون ويمرعون.

وفي «الصحيح» من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني اللَّه تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان، لا تُمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين اللَّه تعالى، ونفعه بما بعثني اللَّه به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدي اللَّه الذي أرسلتُ به»[1].

فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى اللَّه عزّ وجلّ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل صلوات اللَّه عليهم وسلامه حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت، فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها، وزكا الناس بها.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى اللَّه عليهم وسلم الذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ

(1) البخاري (79)، في العلم، باب: فضل من علم وعلم، ومسلم (2282/ 15)، في الفضائل، باب: بيان ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم، وأحمد (4/ 399).

﴿وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥﴾ [صٓ: 45]، فالأيدي: القوة في أمر اللَّه، والأبصار: البصائر في دين اللَّه عزّ وجلّ: فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل، ففجّرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصاً، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل: هل خصّكم رسول اللَّه ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه اللَّه عبداً في كتابه[1].

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية.

فإنها[2] حفظت النصوص، وكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقّوْها منهم، فاستنبطوا منها، واستخرجوا كنوزها، واتّجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات، ووردوها كلّ بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ [البقرة: 60] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «نضّر اللَّه امرأ سمع مقالتي فوعاها، ثم أدّاها كما سمعها، فربَّ حامل فقهٍ غير فقيه، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[3].

وهذا عبد اللَّه بن عباس حبْر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه: سمعت، ورأيت، وسمع الكثير من الصحابة، وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً.

قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي

---

(1) البخاري (3047)، في الجهاد، باب: فكاك الأسير، والترمذي (1412)، في الديات، باب: ما جاء لا يقتل مسلم بكافر، والنسائي (4744)، في القسامة، باب: سقوط القود من المسلم للكفار، وأحمد (1/ 79).

(2) أي الطبقة الثانية.

(3) ابن ماجه (3056)، في المناسك، باب: الخطبة يوم النحر، قال في الزوائد: «هذا إسناد فيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس وقد رواه بالعنعة، والإسناد على حاله صحيح». وأحمد (4/ 80، 82)، والحاكم (1/ 87)، في العلم، باب: ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

فاق به الناس، وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص، فأنبتت من كل زوج كريم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: 4].

وأين تقع فتاوى ابن عباس، وتفسيره، واستنباطه، من فتاوى أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق: يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درساً، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقُّه والاستنباط وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها.

❑ وهكذا الناس بعده قسمان:

قسم حفظ مُعْتنون بالضبط، والحفظ، والأداء، كما سمعوا، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه.

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص، والتفقُّه فيها.

فالأول كأبي زرعة، وأبي حاتم، وابن وارة. وقبلهم: كبندار محمد بن بشار، وعمرو الناقد، وعبد الرزاق، وقبلهم كمحمد بن جعفر غندر، وسعيد بن أبي عُروبة، وغيرهم من أهل الحفظ، والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف، واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص.

والقسم الثاني: كمالك، والليث، وسفيان، وابن المبارك، والشافعي، والأوزاعي، وإسحاق، والإمام أحمد بن حنبل، والبخاري، وأبي داود، ومحمد بن نصر المروزي، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية، فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً.

الطبقة الثالثة: وأما الطائفة الثالثة وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً، فلا حفظ، ولا فهم، ولا رواية، ولا دراية، ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ورعاية ودراية.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية، ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء، لا رواية، ولا دراية، ولا رعاية.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 45]، فهم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، إن همَّ أحدهم إلا بطنُه وفرجه، فإن ترقَّت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همّته فوق ذلك، كان في داره وبستانه ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلك، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية، كان همه في نصرة النفس السبعية، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء.

فإن النفوس كلبية وسبعية وملكية.

فالكلبية: تقنع بالعظم، والكسرة، والجيفة، والعذرة.

والسبعية: لا تقنع بذلك، بل بقهر النفوس، والاستعلاء عليها بالحق والباطل.

وأما الملكية: فقد ارتفعت عن ذلك، وشمَّرت إلى الرفيق الأعلى، فهمَّتُها العلم والإيمان، ومحبة اللَّه تعالى، والإنابة إليه، والطمأنينة به، والسكون إليه، وإيثار محبته ومرضاته، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربّها ووليِّها، لا لتنقطع به عنه.

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً، وهو المثل الناري، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ [الرعد: 17]، وهو الحديد والنحاس، والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث، فيخرج خبثها فيرمي به ويطرح، ويبقى خالصها، فهو الذي ينفع الناس.

ولما ضرب اللَّه سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له، ورفع بهداه رأساً، وحكم من لم يستجب له، ولم يرفع بهداه رأساً، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: 18].

والمقصود: أن اللَّه تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين، الروحي والجسمي بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه، كما لا إضاءة بدونه، وكما أنه به حياة القلب، فيه انفساحه وانشراحه وسعته، كما في الترمذي عن النبي ﷺ: «إذا دخل النُّور القلب انفسح وانشرح» قالوا: وما علامة ذلك؟

قال: «الإنابة إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»[1].

ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى اللَّه تعالى، فإن اللَّه تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلَّا الطيب، وهو نور ومصدر عن النور، ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور، كما في «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي اللَّه عنها عن النبي ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخُلق آدم مما وصف لكُم»[2].

فلما كانت مادة الملائكة من نور، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدي اللَّه عزّ وجلّ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في أهل عليين. فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيّرة مشرقة صعدت إلى اللَّه عزّ وجلّ مع الملائكة.

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى اللَّه تعالى، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها، لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سماوية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هي منه، وهذا مبين في حديث البراء بن عازب الطويل الذي رواه الإمام أحمد، وأبو عوانة الإسفراييني في «صحيحه»، والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح[3].

---

(1) نوادر الأصول ص 125، 126، والحاكم في المستدرك (4/ 311)، في الرقاق، باب: إعلام النور في الصدر، وضعفه الألباني.

(2) مسلم (2996/ 60)، في الزهد، باب: في أحاديث متفرقة، وفيه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

(3) أبو داود (4753)، في السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، والنسائي (2057)، في الجنائز، باب: عذاب القبر، وأحمد (4/ 287، 288)، والحاكم في المستدرك (1/ 37 ـ 40)، في الإيمان، باب: مجيء ملك الموت عند قبض الروح، وقال: هذه الأسانيد التي ذكرتها صحيحة على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

والمقصود: أن اللَّه عزّ وجلّ لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح إلا ما كان منها نوراً، وأعظم الخلق نوراً أقربهم إليه وأكرمهم عليه.

وفي «المسند» من حديث عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ: «إن اللَّه تعالى خلق خلْقَه في ظُلمةٍ، وألْقى عليهم من نوره، فمن أصاب من ذلك النُّور اهتدى، ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول: جفَّ القلمُ على علْم اللَّه تعالى»[1].

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الإيمان، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته، واللَّه تعالى الموفق.

وهذا النور الذي ألقاه عليهم سبحانه وتعالى هو الذي أحياهم وهداهم، فأصاب الفطرة منه حظَّها، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله، أكمله لهم، وأتمه بالروح الذي ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام، والنور الذي أوحاه إليهم، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق الذي حصل لها يوم إلقاء النور، فانضاف نور الوحي والنبوة إلى نور الفطرة، نور على نور، فأشرقت منه القلوب، واستنارت به الوجوه، وحييت به الأرواح، وأذعنت به الجوارح للطاعات طوعاً واختياراً، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها.

ثم دلها ذلك النور على نور آخر هو أعظم منه وأجل، وهو نور الصفات العليا الذي يضمحل فيه كل نور سواه، فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب كنسبة المرئيات إلى العين، ذلك لاستيلاء اليقين عليها، وانكشاف حقائق الإيمان لها، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزاً، وإلى استوائه عليه، كما أخبر به سبحانه وتعالى في كتابه، وكما أخبر به عنه رسوله ﷺ، يدبِّر أمر الممالك، ويأمر وينهي، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويعزّ ويذلُّ، ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول، فيذهب بدولة، ويأتي بأخرى.

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه الأمر، ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات، نافذة بحسب إرادته ومشيئته، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدُّم ولا تأخُّر، وأمره وسلطانه نافذ في السموات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما

(1) أحمد 2/ 176، 197، صححه الشيخ شاكر (6644).

تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذرَّاته، يقلِّبها ويصرفها، ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وحكمة، ووسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي الحاجات، وأحاط بصره بجميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر.

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد، وخطر بقلبه، ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه ما لم يخطر بقلبه بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا له الخلق والأمر، وله الملك وله الحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، وله الملك كله، وله الحمد، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، وسعت نعمته إلى كل حي ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: 29]: يغفر ذنباً، ويفرِّج همًّا، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويُعلم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويرشد حيراناً، ويغيث لهفاناً، ويفكُّ عانياً، ويُشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويُعافي مبتلي، ويقبل تائباً، ويجزي مُحسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً، ويُقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمِّن روعة، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، يمينه ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار.

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزِمَّة الأمور معقودة بقضائه وقدره، الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزُّهن، ثم يقول: أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها.

ولا يتعاظمه ذنب يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها.

لو أن أهل سماواته، وأهل أرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد في ملكه شيئاً، ولو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو أن أهل سمواته،

وأهل أرضه، وإنسهم وجنهم، وحيهم وميتهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد، فسألوه، فأعطي كلا منهم، ما سأله، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ولو أن أشجار الأرض كلها من حين وجدت إلى أن تنقضي الدنيا أقلام، والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد، لفنيت الأقلام، ونفد المداد، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى. وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهي لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية، فهو أحق بالفناء والنفاد، وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق.

هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

تبارك وتعالى، أحقُّ مَنْ ذُكر، وأحقُّ مَنْ عبد، وأحق من حُمد، وأولى من شُكر، وأنصر من ابتغى، وأرأف مَنْ ملك، وأجود من سُئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم، حكمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حق واجبٌ كلا ولا سعي لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدْله أو نُعِّموا فبفضْله، وهو الكريم الواسعُ

هو الملك الذي لا شريك له، والفرد فلا نِدَّ له، والغنى فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له، ولا صاحبة له، والعلى فلا شبيه له، ولا سَمِيَّ له، كلُّ شيء هالك إلا وجهه، وكلُّ ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يعصي إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيشكر، ويُعصي فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجَّل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82].

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات، اضمحل عندها كل نور، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال، ولا تناله عبارة. والمقصود: أن الذكر ينوِّر القلب والوجه والأعضاء، وهو نور العبد في دنياه، وفي البرزخ، وفي القيامة.

وعلى حسب نور الإيمان في قلب العبد، تخرج أعماله وأقواله، ولها نور وبرهان، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى اللَّه تبارك وتعالى كُنور الشمس، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على اللَّه عزّ وجلّ، وهكذا يكون نوره الساعي بين يديه على الصراط، وهكذا يكون نور وجهه في القيامة، واللَّه تعالى المستعان عليه الاتكال.

السابعة والثلاثون: أن الذكر رأس الأمور، وطريق عامة الطائفة، ومنشور الولاية، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على اللَّه عزّ وجلّ، فليتطهر وليدخل على ربه عزّ وجلّ يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه عزّ وجلّ وجد كل شيء، وإن فاته ربه عزّ وجلّ فاته كل شيء.

الثامنة والثلاثون: أن في القلب خلّة وفاقة لا يسدُّها شيء البتة إلا ذكر اللَّه عزّ وجلّ، فإذا صار الذكر شعار القلب، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة، واللسان تبع له، فهذا هو الذكر الذي يسد الخلة، ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنياً بلا مال عزيزاً بلا عشيرة، مهيباً بلا سلطان، فإذا كان غافلاً عن ذكر اللَّه عزّ وجلّ، فهو بضد ذلك، فقير مع كثرة جدته، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته.

التاسعة والثلاثون: أن الذكر يجمع المتفرّق، ويفرّق المجتمع، ويقرّب البعيد، ويبعد القريب.

فيجمع ما تفرَّق على العبد من قلبه وإرادته، وهمومه وعزومه، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه، وانفراطها له.

والحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه، وعزمه وإرادته، ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات على فوت حظوظه، ومطالبه، ويفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل، ويفرق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية، وكلما كان أقوى طلباً للَّه سبحانه وتعالى، وأشد تعلقاً به وإرادة له، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر.

وأما تقريبه البعيد، فإنه يقرب إليه الآخرة التي يبعدها منه الشيطان والأمل، فلا يزال

يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحصرها، فحينئذٍ تصغر في عينه الدنيا، وتعظم في قلبه الآخرة.

ويبعد القريب إليه وهي الدنيا التي هي أدنى إليه من الآخرة، فإن الآخرة متى قربت من قلبه بعدت منه الدنيا، كلما قربت من هذه مرحلة بعدت منه هذه مرحلة، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر واللَّه المستعان.

الأربعون: أن الذكر ينبه القلب من نومه، ويوقظه من سنّته، والقلب إذاكان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شد المئزر، وأحيا بقية عمره، واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر، فإن الغفلة نوم ثقيل.

الحادية والأربعون: أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها، كان أعظم لثمرتها، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كل مقام، وقاعدته التي ينبني ذلك المقام عليها، كما يبني الحائط على أُسِّه، وكما يقوم السقف على حائطه، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ، لم يمكنه قطع منازل السير، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم، فالغفلة نوم القلب أو موته.

الثانية والأربعون: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل: 128]، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69] ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]. وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلهي: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[1].

---

(1) البخاري تعليقاً (فتح 13/ 499)، في التوحيد، باب قول اللَّه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: 16]، وابن ماجه (3792)، في الأدب، باب: فضل الذكر، والحاكم في المستدرك (1/ 496)، في الدعاء، باب: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وفي أثر آخر: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، فإني أحب التوابين، وأحب التوابين، وإن لم يتوبوا، فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعائب».

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة، ولا تنالها الصفة، وإنما تعلم بالذوق: وهي مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود، وإلا وقع في حلول يضاهي به النصارى، أو اتحاد يضاهي به القائلين بوحدة الوجود، وأن وجود الرب عين وجود هذه المخلوقات، بل ليس عندهم رب وعبد، ولا خلق وحق، بل الرب هو العبد، والعبد هو الرب، والخلق المشبَّه هو الحق المنزه، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

والمقصود: أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة، وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذكر، وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه، ولج في باب الحلول والاتحاد ولا بد.

الثالثة والأربعون: أن الذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل اللَّه عزّ وجلّ، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل اللَّه عزّ وجلّ، وقد تقدم أن «من قال في يوم مائة مرة لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كانت له عدل عشْر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت لهُ حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي..» الحديث[1].

وذكر ابن أبي الدنيا، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء: إن رجلاً أعتق مائة نسمة. قال: إن مائة نسمة من مال رجل كثيرٌ، وأفضل من ذلك إيمان ملزُوم بالليل والنهار، وألا يزال لسان أحدكم رطباً من ذكر اللَّه عزّ وجلّ.

وقال ابن مسعود: لأن أسبح اللَّه تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل اللَّه عزّ وجلّ.

---

(1) البخاري (6403)، في الدعوات، باب: فضل التهليل، ومسلم (2691/ 28)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التهليل التسبيح والدعاء واللفظ له.

وجلس عبد اللَّه بن عمر، وعبد اللَّه بن مسعود، فقال عبد اللَّه بن مسعود: لأن آخذ في طريق أقول فيه: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر أحب ليَّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل اللَّه عزّ وجلّ، فقال عبد اللَّه بن عمرو: لأن آخذ في طريق، فأقولهن أحبُّ إليّ من أن أحمل عددهن على الخيل في سبيل اللَّه عزّ وجلّ.

وقد تقدَّم حديث أبي الدرداء قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أنبِّئكُم بخيْرِ أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاق الورق والذهب، وخيرٍ لكم من أن تلقوا عدوَّكُم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه قال: «ذكْرُ اللَّه»[1] رواه ابن ماجه والترمذي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

الرابعة والأربعون: أن الذكر رأس الشكر، فما شكر اللَّه تعالى من لم يذكره.

وذكر البيهقي عن زيد بن أسلم، أن موسى عليه السلام قال: ربّ قد أنعمت عليَّ كثيراً، فدلني على أن أشكرك كثيراً، قال: اذكرني كثيراً، فإذا ذكرتني كثيراً فقد شكرتني كثيراً، وإذا نسيتني فقد كفرتني.

وقد ذكر البيهقي أيضاً في شعب الإيمان، عن عبد اللَّه بن سلام قال: قال موسى عليه السلام: يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ فأوحى اللَّه تعالى إليه ألا يزال لسانك رطباً من ذكري، قال: يا رب إني أكون على حالٍ أُجِلُّك أن أذكرك فيها. قال: وما هي؟ قال: أكون جنباً، أو على الغائط، أو إذا بلت. فقال: وإن كان. قال: يا رب، فما أقول؟ قال: تقول: «سبحانك وبحمدك جنبني الأذى، وسبحانك وبحمدك فقني الأذى».

قلت: قالت عائشة: كان رسول اللَّه ﷺ يذكرُ اللَّه تعالى على كل أحيانه[2].

ولم تستثن حالة من حاله، وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى في حال طهارته

---

(1) الترمذي (3377)، في الدعوات، باب (6)، وابن ماجه (3790)، في الأدب، باب: فضل الذكر، والحاكم في المستدرك (1/ 496)، في الدعاء، باب: «أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه».

(2) مسلم (373/ 117) في الحيض، باب: ذكر اللَّه تعالى في حال الجنابة وغيرها، وأبو داود (18)، في الطهارة، باب: في الرجل يذكر اللَّه تعالى على غير طهر، والترمذي (3384)، في الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، وقال: «غريب»؛ وابن ماجه (302)، في الطهارة، باب: ذكر اللَّه عزّ وجلّ على الخلاء والخاتم في الخلاء، وأحمد (6/ 70، 153).

وجنابته. وأما في حال التخلِّي، فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها، وكذلك شرع لأمته من الذكر عند الجماع أن يقول أحدكم: «بسم اللَّه، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا»[1]. وأما الذكر عند نفس قضاء الحاجة، وجماع الأهل، فلا ريب أنه لا يكره بالقلب؛ لأنه لا بد لقلبه من ذكر، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شيء إليه، فلو كلِّف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال، كما قال القائل:

يُراد من القلب نِسيانُكُم وتأبى الطِّباع على الناقل

فأما الذكر باللسان على هذه الحالة، فليس مما شرع لنا، ولا ندبنا إليه رسول اللَّه ﷺ. ولا نقل عن أحد من الصحابة رضي اللَّه عنهم.

قال عبد اللَّه بن أُبي الهذيل: إن اللَّه تعالى ليُحبُّ أن يُذكر في السوق، ويحبُّ أن يذكر على كُلِّ حال، إلا على الخلاء.

ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء، والمراقبة، والنعمة عليه في هذه الحالة، وهي من أجل الذكر، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها. واللائق بهذه الحال، التقنُّع بثوب الحياء من اللَّه تعالى، وإجلاله، وذكر نعمته عليه، وإحسانه إليه في إخراج هذا القذر المؤذي له الذي لو بقي فيه لقتله. فالنعمة في تيسير خروجه، كالنعمة في التغذي به.

وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء، مسح بطنه وقال: يا لها نعْمةٌ لو يعلمُ الناسُ قدرها.

وكان بعض السلف يقول: الحمد للَّه الذي أذاقني لذته، وأبقى في منفعته، وأذهب عني مضرته.

وكذلك ذكره حال الجماع ذكر النعمة التي منَّ بها عليه، وهي أَجَلُّ نِعم الدنيا. فإذا

---

(1) البخاري (141)، في الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع؛ وأبو داود (2161)، في النكاح، باب: جامع النكاح، ومسلم (1434/ 116)، في النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، وابن ماجه (1919)، في النكاح، باب: ما يقول الرجل إذا دخلت عليه امرأته، وأحمد (1/ 217).

ذكر نعمة اللَّه تعالى عليه بها، هاج من قلبه هائج الشكر، فالذكر رأس الشكر.

وقال النبي ﷺ لمعاذ: «واللَّه يا معاذ إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك»[1].

جمع بين الذكر والشكر، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 152] فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح.

الخامسة والأربعون: أن أكرم الخلق على اللَّه تعالى من المتقين مَنْ لا يزال لسانه رطباً بذكره، فإنه اتَّقاه في أمره ونهيه، وجعل ذكره شعاره.

فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار، وهذا هو الثواب والأجر.

والذكر يوجب له القرب من اللَّه عزّ وجلّ والزلفى لديه، وهذه هي المنزلة.

وعمال الآخرة على قسمين: منهم من يعمل على الأجر والثواب، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة، فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند اللَّه تعالى، ويسابق إلى القرب منه، وقد ذكر اللَّه تعالى النوعين في سورة الحديد في قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: 18]، فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: 19]، فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب، ثم قال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: 19] فقيل هذا عطف على الخبر من ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون، وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم، ثم أخبر عنهم بخبر آخر: أن لهم أجراً، وهو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

❑ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور:

أنهم صديقون، وشهداء. فهذه هي المرتبة والمنزلة. قيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

(1) أبو داود (1522)، في الصلاة، باب: في الاستغفار، وأحمد (5/ 245)، والنسائي في الكبرى (9937)، في عمل اليوم والليلة، باب: الحث على قول: «ربّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» دبر الصلوت، والحاكم في المستدرك (1/ 273)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

﴿نُورُهُمْ﴾، فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلؤوا منه، فهم الصديقون، وهم أهل العلم والعمل، والأوّلون أهل البر والإحسان، ولكن هؤلاء أكمل صدِّيقيَّة منهم.

ثم ذكر سبحانه الشهداء، وأنه تعالى يجري عليهم رزقهم ونورهم؛ لأنهم لما بذلوا أنفسهم للّه تعالى أثابهم اللّه تعالى عليها، أن جعلهم أحياء عنده يرزقون، فيجري عليهم رزقهم ونورهم، فهؤلاء السعداء.

ثم ذكر الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة: 10].

والمقصود: أنه سبحانه وتعالى ذكر أصحاب الأجور والمراتب، وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السحرة إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام فقالوا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: 41، 42] أي: أجمع لكم بين الأجر، والمنزلة عندي والقرب مني.

فالعمال عملوا على الأجور، والعارفون عملوا على المراتب المنزلة والزلفى عند اللّه، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء.

وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي رحمه اللّه تعالى قال: قال موسى عليه السلام: «يا رب، أي خلْقِك أكْرَم عليك؟ قال: الذي لا يزال لسانُه رطباً بذكري. قال: يا رب، فأيُّ خلْقك أعْلم؟ قال: الذي يلتمسُ إلى علمه علم غيْره. قال: يا ربِّ أيُّ خلقك أعْدلُ؟ قال: الذي يقضي على نفسه مثلما يقضي على الناس. قال: يا ربِّ، أيّ خلقك أعظم ذنباً؟ قال: الذي يتَّهمُني. قال: يا ربِّ، وهلّ يتهمك أحدٌ؟ قال: الذي يستخيرني ولا يرضى بقضائي».

وذكر أيضاً عن ابن عباس قال: لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء قال: يا ربِّ، أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكُرني ولا ينساني.

وقال كعب: قال موسى عليه السلام: يا رب، أقريبٌ أنت فأناجيك، أم بعيدٌ فأناديك؟ فقال تعالى: يا موسى، أنا جليسُ مَنْ ذكرني. قال: إني أكون على حال أُجلّك عنها. قال: ما هي يا موسى؟ قال: عند الغائط والجنابة. قال: اذكرني على كلِّ حال.

وقال عبيد بن عمير: تسبيحة بحمد اللَّه في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري معه ذهباً.

وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الذين كانت: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: 16]، قال: فيقومون فيتخطون رقاب الناس. قال: ثم ينادي منادٍ: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الذين كانت: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]، قال: فيقومون فيتخطون رقاب الناس، قال: ثم ينادي منادٍ: وسيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الحمّادون للَّه على كل حال؟ قال: فيقومون وهم كثر، ثم تكون التبعة والحساب فيمن بقي.

وأتى رجل أبا مسلم الخولاني فقال له: أوصني يا أبا مسلم، قال: اذكر اللَّه تعالى تحت كل شجرة ومدرة، فقال: زدني، فقال: اذكر اللَّه تعالى حتى يحسبك الناس من ذكر اللَّه تعالى مجنوناً، قال: وكان أبو مسلم يكثر ذكر اللَّه تعالى، فرآه رجل وهو يذكر اللَّه تعالى، فقال: أمجنون صاحبكم هذا؟ فسمعه أبو مسلم فقال: ليس هذا بالجنون يا ابن أخي، ولكن هذا دواء الجنون.

السادسة والأربعون: أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر اللَّه تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر اللَّه تعالى.

وذكر حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذِبهُ بالذكر. وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة، اشتدت به القسوة، فإذا ذكر اللَّه تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر اللَّه عزّ وجلّ.

السابعة والأربعون: أن الذكر شفاءُ القلب ودواؤه، والغفلة مرضه، فالقلوب مريضة، وشفاؤها، ودواؤها في ذكر اللَّه تعالى.

قال مكحول: ذكر اللَّه تعالى شفاء، وذكر الناس داءٌ.

وذكر البيهقي عن مكحول مرفوعاً ومرسلاً: فإذا ذَكَرَتْهُ شفاها وعافاها، فإذا غفلت عنه انتكست، كما قيل:

إذا مرضنا تداوينا بذكرِكُمُ ... فنترُكُ الذِّكر أحياناً فننتكسُ

الثامنة والأربعون: أن الذكر أصل موالاة اللَّه عزّ وجلّ ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه عزّ وجلّ حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه.

قال الأوزاعي: قال حسان بن عطية: ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره.

فهذه المعاداة سببها الغفلة، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر اللَّه ويكره من يذكره، فحينئذٍ يتخذه عدواً كما اتخذ الذاكر ولياً.

التاسعة والأربعون: أنه ما استجلبت نعم اللَّه عزّ وجلّ واستدفعت نقمه بمثل ذكر اللَّه تعالى، فالذكر جلاب للنعم، دافع للنقم، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: 38]، وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفع﴾، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، مادّة الإيمان وقوته بذكر اللَّه تعالى، فمن كان أكمل إيماناً، وأكثر ذكراً، كان دفع اللَّه تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص ذكراً بذكر، ونسياناً بنسيان، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

والذكر رأس الشكر، والشكر جلاب النعم، وموجب للمزيد.

قال بعض السلف رحمة اللَّه عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغْفل عن ذكرك.

الخمسون: أن الذكر يوجب صلاة اللَّه عزّ وجلّ وملائكته على الذاكر، ومن صلى اللَّه تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كلَّ الفلاح، وفاز كلَّ الفوز، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: 41 ـ 43].

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته، إنما هي على الذاكرين له كثيراً، وهذه الصلاة منه ومن الملائكة هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من اللَّه تبارك وتعالى وملائكته، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم بذلك، وأي شر لم يدفع عنهم؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله، وباللَّه والتوفيق.

الحادية والخمسون: أن من شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا، فليستوطن مجالس الذكر، فإنها رياض الجنة.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد اللَّه قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة» قلنا: يا رسول اللَّه، وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»، ثم قال: «اغدوا وروحوا واذكروا، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند اللَّه تعالى؛ فلينظر كيف منزلة اللَّه تعالى عنده، فإن اللَّه تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[1].

الثانية والخمسون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر اللَّه تعالى فيه، كما أخرجا في «الصحيحين» من حديث الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن للَّه ملائكة فُضُلاً عن كتاب الناس يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللَّه تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم تعالى وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، واللَّه ما رأوك قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تحميداً وتمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. فقال: فيقول: ما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا واللَّه يا رب، ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا واللَّه يا رب، ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة. قال: يقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»[2].

---

(1) في المستدرك (1/ 494)، في الدعاء؛ باب: من كان يحب أن يعلم منزلته عند اللَّه فلينظر كيف منزلة اللَّه عنده، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: «عمر ـ أي ابن عبد اللَّه مولى غفرة ـ ضعيف».

(2) البخاري (6408)، في الدعوات، باب: فضل ذكر اللَّه عزّ وجلّ، ومسلم (2689/ 25)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل مجالس الذكر.

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم، فلهم نصيب من قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 31]، فهذا المؤمن مبارك أين حلَّ، والفاجر مشؤوم أين حلَّ.

فمجالس الذكر: مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة: مجالس الشياطين، وكل مضاف إلى شكله وأشباهه، وكل امرئ يصير إلى ما يناسبه.

الثالثة والخمسون: أن اللَّه عزّ وجلّ يباهي بالذاكرين ملائكته، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر اللَّه تعالى. قال: آللَّه ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: واللَّه ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول اللَّه ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول اللَّه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر اللَّه تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا. قال: «آللَّه ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: واللَّه ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني: أن اللَّه تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة»[1].

فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال.

الرابعة والخمسون: أن مُدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك، لما ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه، عن أبي الدرداء قال: الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر اللَّه عزّ وجلّ يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك.

الخامسة والخمسون: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر اللَّه تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر اللَّه تعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: 14]. قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها، وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكروني بها. واللام في

---

(1) مسلم (2701/ 40)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

هذا لام التعليل. وقيل: هي اللام الوقتية، أي: أقم الصلاة عند ذكري. كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: 78]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، وهذا المعنى يراد بالآية، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف، والذكر مصدر إلا أن يقدر زمان محذف، أي: عند وقت ذكري، وهذا محتمل.

والأظهر: أنها لام التعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه، فذكر اللَّه تعالى سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45].

فقيل: المعنى: إنكم في الصلاة تذكرون اللَّه، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر اللَّه تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس، وسلمان، وأبي الدرداء، وابن مسعود رضي اللَّه عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: هو قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ فذكر اللَّه تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: وذكر اللَّه أكبر من كل شيء.

وقيل: لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق...» الحديث[1].

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدّس اللَّه روحه يقول: الصحيح: أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهي عن الفحشاء

(1) الترمذي (3377)، في الدعوات، باب (6)، وابن ماجه (379)، في الأدب، باب: فضل الذكر، والحاكم في المستدرك (1/ 496)، في الدعاء، باب: «أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه».

والمنكر، وهي مشتملة على ذكر اللَّه تعالى، ولما فيها من ذكر اللَّه أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر اللَّه أكبر.

وفي «السنن» عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إنما جُعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر اللَّه تعالى». رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[1].

السادسة والخمسون: أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً للَّه عزّ وجلّ، فأفضل الصُوَّام، أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ في صومهم، وأفضل المتصدقين، أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ، وأفضل الحجاج، أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ. وهكذا سائر الأعمال.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً في ذلك: أن النبي ﷺ سئل: أي أهل المسجد خير؟ قال: «أكثرهُم ذكراً للَّه عزّ وجلّ» قيل: أي أهل الجنازة خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ». قيل: فأي المجاهدين خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ». قيل: فأي الحجاج خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ» قيل: وأي العواد خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً للَّه عزّ وجلّ». قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كله[2].

وقال عبيد بن عمير: إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم بالمال أن تنفقوه، وجبُنْتم عن العدو أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر اللَّه عزّ وجلّ.

السابعة والخمسون: أن إدامة الذكر تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها، سواء كانت بدنية، أو مالية، أو بدنية مالية، كحج التطوع.

وقد جاء ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا: يا رسول اللَّه، ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى، والنعيم المقيم،

---

(1) أبو داود (1888)، في المناسك، باب: في الرمل، والترمذي (902)، في الحج باب: ما جاء كيف يرمي الجمار.

(2) أحمد (3/ 438)، والطبراني في الكبير (20/ 186) رقم (407). وقال الهيثمي في المجمع (10/ 77)، في الأذكار، باب: فضل ذكر اللَّه تعالى والإكثار منه: «فيه زبان بن فائد وهو ضعيف، وقد وثق، وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات».

يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ولهم فضل أموالهم، يحجون بها، ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون. فقال: «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع ما صنعتم»؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه. قال: «تسبحون، وتحمدون، وتكبرون خلف كل صلاة..» الحديث متفق عليه[1].

فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر، فلما سمع أهل الدُّثُور بذلك عملوا به، فازدادوا ـ إلى صدقاتهم وعبادتهم بمالهم ـ التعبد بهذا الذكر، فحازوا الفضيلتين، فنافسهم الفقراء، وأخبروا رسول اللَّه ﷺ بأنهم قد شاركوهم في ذلك، فانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليهم، فقال: «ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[2].

وفي حديث عبد اللَّه بن بسر قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول اللَّه، كثرت عليّ خلال الإسلام وشرائعه، فأخبرني بأمر جامع يكفيني. قال: «عليك بذكر اللَّه تعالى قال: ويكفيني يا رسول اللَّه؟ قال: «نعم، ويفضل عنك»[3].

فدله الناصح ﷺ على شيء يعينه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر اللَّه تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحب، فلا شيء أحب من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام، وتسهل به عليه، وهو ذكر اللَّه عزّ وجلّ، يوضحه:

الثامنة والخمسون: أن ذكر اللَّه عزّ وجلّ من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعلها قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك، يوضحه:

---

(1) البخاري (843)، في الصلاة، باب: الذكر بعد الصلاة، ومسلم (595/ 142)، في المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة.

(2) مسلم (595/ 142)، في الكتاب والباب السابقين.

(3) رواه بمعناه الترمذي (3376)، في الدعوات، باب (5)، وقال: «غريب»، وابن ماجه (3793)، في الأدب، باب: فضل الذكر، والحاكم (1/ 494)، في الدعاء، باب: مداومة الذكر وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

التاسعة والخمسون: أن ذكر اللَّه عزّ وجلّ يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر اللَّه عزّ وجلّ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أماناً له، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، من له أدنى حس قد جرب هذا وهذا. واللَّه المستعان.

الستّون: أن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى أنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في مشيته، وكلامه، وإقدامه وكتابته، أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

وقد علَّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعلياً رضي اللَّه تعالى عنهما أن يسبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا أربعاً وثلاثين، لما سألته الخادم، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحْن والسعي والخدمة، فعلمها ذلك وقال: «إنه خير لكما من خادم».

فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في بدنه مغنية عن خادم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى يذكر أثراً في هذا الباب ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟ فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه، فلما قالوا، حملوه، حتى رأيت ابن أبي الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم: أن أول ما خلق اللَّه عزّ وجلّ حين كان عرشه على الماء حملة العرش، قالوا: ربنا لم خلقتنا؟ قال: خلقتكم لحمل عرشي. قالوا: ربنا ومن يقوى على حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟ قال: لذلك خلقتكم. فأعادوا عليه ذلك مراراً، فقال لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه، فحملوه.

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق والدخول على الملوك، ومن يخاف، وركوب الأهوال. ولها أيضاً تأثير عجيب في دفع الفقر، كما روى ابن أبي الدنيا عن الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن أسد بن وداعة رحمه اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قال: لا حول ولا قوة إلا باللَّه، مائة مرة في كل يوم،

لم يصبه فقر أبداً»[1].

وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقي عدواً، أو ناهض حصناً قال: لا حول ولا قوة إلا باللَّه، وإنه ناهض يوماً حصناً للروم، فانهزم فقالها المسلمون وكبروا، فانهدم الحصن.

الحادية والستون: أن عمال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القَتَرة والغبار يمنع من رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف؛ رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق.

قال الوليد بن مسلم: حدثنا محمد بن عجلان: سمعت عمر مولى غفرة يقول: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم، لم يروا عملاً أفضل ثواباً من الذاكرين، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر.

وقال أبو هريرة: قال رسول اللَّه ﷺ: «سيروا، سبق المفرِّدون» قالوا: وما المفرِّدون قال: «الذين أهتِرُوا في ذكر اللَّه تعالى يضع الذكر عنهم أوزارهم»[2]. اهتروا بالشيء وفيه: أولعوا به ولزموه وجعلوه دأبهم. في بعض ألفاظ الحديث: «المستهترون بذكر اللَّه»[3].

ومعناه: الذين أولعوا به، يقال: استهتر فلان بكذا: إذا أولع به.

وفيه تفسير آخر: أن «أهتروا في ذكر اللَّه» أي: كبروا، وهلك أقرانُهم وهم في ذكر اللَّه تعالى. يقال: أهْتر الرجل، فهو مُهتر: إذا سقط في كلامه من الكبر، والهتر: السقط من الكلام، كأنه بقي في ذكر اللَّه تعالى حتى خرف وأنكر عقله، والهتر: الباطل أيضاً، ورجل مستهتر: إذا كان كثير الأباطيل. وفي حديث ابن عمر: أعوذ باللَّه أن أكون من المستهترين.

وحقيقة اللفظ: أن الاستهتار: الإكثار من الشيء، والولوع به، حقاً؛ كان أو باطلاً، وغلب في عرف الناس استعماله على المبطل، حتى إذا قيل: فلان مستهتر، لا يفهم منه إلا الباطل، وإنما إذا قيد بشيء تقيد به، نحوه: هو مستهتر، وقد اهتر في ذكر اللَّه تعالى،

---

(1) الترغيب والترهيب (2/ 449)، وقال: «رواته ثقات إلا أسدا».

(2) أحمد (2/ 323).

(3) الترمذي (3596)، في الدعوات، باب: (128)، وقال: «حسن غريب»، وضعفه الألباني.

أي: أولع به وأُغرِي به.

ويقال: استُهتر فيه وبه. وتفسير هذا في الأثر الآخر: «أكثروا ذكر اللَّه تعالى حتى يقال: مجنون»[1].

الثانية والستون: أن الذكر سبب لتصديق الرب عزّ وجلّ عبده، فإنه أخبر عن اللَّه تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد صدَّقه ربه، ومن صدقه تعالى، لم يحشر مع الكاذبين، ورجى له أن يحشر مع الصادقين.

روى أبو إسحاق عن الأغرّ أبي مسلم، أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنهما أنهما شهدا على رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، قال: يقول اللَّه تبارك تعالى: صدق عبدي. لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا اللَّه وحده، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا وحدي، وإذا قال: إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا، لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا اللَّه له الملك وله الحمد، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا اللَّه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي» قال أبو إسحاق: ثم قال الأغر شيئاً لم أفهمه، قلت لأبي جعفر: ما قال؟ قال: «من رزقهن عند موته لم تمسه النار»[2].

الثالثة والستون: أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر، أمسكت الملائكة عن البناء. فإذا أخذ في الذكر أخذوا في البناء.

وذكر ابن أبي الدنيا في كتابه، عن حكيم بن محمد الأخنسي قال: بلغني أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء، فيقال لهم، فيقولون: حتى تأتينا نفقة.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قال سبحان اللَّه

---

(1) أحمد (3/ 68، 71)، وضعفه الألباني.

(2) الترمذي (3430)، في الدعوات، باب: ما يقول العبد إذا مرض، وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (9858)، في عمل اليوم والليلة، باب: ثواب من قال: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر.. إلخ، وابن ماجه (3794)، في الأدب، باب: فضل لا إله إلا اللَّه.

وبحمده، سبحان اللَّه العظيم ـ سبع مرات ـ بنى له بُرج في الجنة»[1].

وكما أن بناءها بالذكر، فغراس بساتينها بالذكر كما تقدم في حديث النبي ﷺ عن إبراهيم الخليل عليه السلام: «أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر»[2]. فالذكر غراسها وبناؤها.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أكثروا من غراس الجنة»، قالوا: يا رسول اللَّه، وما غراسها؟ قال: «ما شاء اللَّه، لا حَول ولا قوة إلا باللَّه»[3].

الرابعة والستون: أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم، فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال، كان الذكر سداً في تلك الطريق، فإذا كان ذكراً دائماً كاملاً، كان سداً محكماً لا منفذ فيه، وإلا فبحسبه.

قال عبد العزيز بن أبي روَّاد: كان رجل بالبادية قد اتخذ مسجداً، فجعل في قبلته سبعة أحجار، كان إذا قضى صلاته قال: يا أحجار، أشهدكم أنه لا إله إلا اللَّه، قال: فمرض الرجل، فعُرج بروحه، قال: فرأيت في منامي أنه أُمر بي إلى النار، قال: فرأيت حجراً من تلك الأحجار أعرفه قد عظم، فسدَّ عني باباً من أبواب جهنم، ثم أتى إلى الباب الآخر، فإذا حجر من تلك الأحجار أعرفه قد عظم، فسد عن باباً من أبواب جهنم، حتى سد عني بقية الأحجار أبواب جهنم.

الخامسة والستون: أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب، كما روى حسين المعلم عن عبد اللَّه بن بريدة، عن عامر الشعبي، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: أجد في كتاب اللَّه المنزل: أن العبد إذا قال: «الحمد للَّه»، قالت الملائكة: «رب العالمين»، وإذا

---

(1) لم أقف عليه، ويغنى عنه حديث الترمذي الذي سبق.

(2) الترمذي (3462)، في الدعوات، باب: (59)، وصححه الألباني.

(3) روى بنحو الطبراني في الكبير (12/ 364) رقم (13354)، وقال الهيثمي في المجمع (10/ 101)، في الأذكار، باب: ما جاء في لا حول ولا قوة إلا باللَّه: «فيه عقبة بن علي وهو ضعيف»، وقال محققه: «فيه أيضاً عبد اللَّه بن عمر».

قال: «الحمد للّه رب العالمين»، قالت الملائكة: «اللهم اغفر لعبدك»، وإذا قال: «سبحان اللّه»، قالت الملائكة: «وبحمده»، وإذا قال: «سبحان اللّه وبحمده»، قالت الملائكة: «اللّهم اغفر لعبدك»، وإذا قال: «لا إله إلا اللّه» قالت الملائكة: «واللّه أكبر»، وإذا قال: «لا إله إلا اللّه واللّه أكبر» قالت الملائكة: «اللهم اغفر لعبدك».

السادسة والستون: إن الجبال والقِفار تتباهى، وتستبشر بمن يذكر اللّه عزّ وجلّ عليها.

قال ابن مسعود: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: أمرَّ بك اليوم أحد يذكر اللّه عزّ وجلّ؟ فإذا قال: نعم، استبشر.

قال عون بن عبد اللّه: إن البقاع لينادي بعضها بعضاً: يا جارتاه، أمرّ بك اليوم أحد يذكر اللّه؟ فقائلة: نعم، وقائلة: لا، فقال الأعمش عن مجاهد: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان هل مرَّ بك اليوم ذاكر للّه عزّ وجلّ؟ فمن قائل: لا، ومن قائل: نعم.

السابعة والستون: أن كثرة ذكر اللّه عزّ وجلّ أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر للّه عزّ وجلّ.

قال اللّه عزّ وجلّ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142].

وقال كعب: من أكثر ذكر اللّه عزّ وجلّ برئ من النفاق. ولهذا واللّه أعلم ختم اللّه تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: 9]، فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر اللّه عزّ وجلّ، فوقعوا في النفاق.

وسئل بعض الصحابة رضي اللّه عنهم عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون اللّه إلا قليلاً.

هذا من علامة النفاق: قلة ذكر اللّه عزّ وجلّ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، واللّه عزّ وجلّ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر اللّه عزّ وجلّ.

الثامنة والستون: أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكرة. والنعيم الذي يحصل لقلبه، لكفي به، ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة.

قال مالك بن دينار: ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل ذكر اللَّه عزّ وجلّ، فليس شيء من الأعمال أخف مؤونة منه، ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة، وابتهاجاً للقلب.

التاسعة والستون: أنه يكسو الوجه نضرة في الدنيا، ونوراً في الآخرة، فالذاكرون أنضر الناس وجوهاً في الدنيا، وأنورهم في الآخرة.

ومن المراسيل عن النبي ﷺ قال: «من قال كل يوم مائة مرة لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيءٍ قدير، أتى اللَّه تعالى يوم القيامة، ووجهه أشد بياضاً من القمر ليلة البدر»[1].

السبعون: أن في دوام الذكر في الطريق، والبيت، والحضر، والسفر، والبقاع، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة، فإن البقعة، والدار، والجبل، والأرض، تشهد للذاكر يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: 1 ـ 5].

فروى الترمذي في «جامعه»، من حديث سعيد المقبري: عن أبي هريرة قال: قرأ رسول اللَّه ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: 4]، قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا اللَّه ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: «عمل يوم كذا وكذا» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[2].

والذاكر للَّه عزّ وجلّ في سائر البقاع مكثر شهوده، ولعلهم أو أكثرهم أن يقبلوه يوم القيامة يوم قيام الأشهاد، وأداء الشهادات، يفرح ويغتبط بشهادتهم.

الحادية والسبعون: أن في الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل من الغيبة، والنميمة، واللغو، ومدح الناس، وذمهم، وغير ذلك، فإن اللسان لا يسكت البتة.

فإما لسان ذاكر، وإما لسان لاغٍ، ولا بد من أحدهما، فهي النفس إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل، وهو القلب إن لم تسكنه محبة اللَّه عزّ وجلّ، سكنته محبة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان، إن لم تشغله بالذكر، شغلك باللغو، وهو عليك ولا بد،

---

(1) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(2) الترمذي (3353)، في التفسير، باب: من سورة إذا زلزلت، وضعفه الألباني.

فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين.

الثانية والسبعون: وهي التي بدأنا بذكرها، وأشرنا إليها إشارة، فنذكرها هاهنا مبسوطة لعظيم الفائدة بها، وحاجة كل أحد، بل ضرورته إليها، وهي أن الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً، وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر اللَّه عزّ وجلّ.

وفي هذا الحديث العظيم، الشريف القدر، الذي ينبغي لكل مسلم أن يحفظه، فنذكره بطوله لعموم فائدته، وحاجة الخلق إليه، وهو حديث سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب قال:

خرج علينا رسول اللَّه ﷺ يوماً، وكنا في صفة بالمدينة، فقام علينا وقال: «إني رأيت البارحة عجيباً: رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برُّه بوالديه، فرد ملك الموت عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر اللَّه عزّ وجلّ، فطرد الشيطان عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً من أمتي يلتهب وفي رواية: يلهث عطشاً، كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاءه صيام شهر رمضان، فأسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتي، ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حِلقاً، كلما دنا إلى حلقة طرد، فجاءه غسله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن يساره ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها، فجاء حجه وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة، وأدخلاه في النور، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي بيده وهج النار وشرره، فجاءته صدقته، فصارت سترة بينه وبين النار، وظلت على رأسه، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المسلمين، إنه كان وصُولاً لرحمه فكلِّموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم، وأدخله في ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أتي جاثياً على ركبتيه، وبينه وبين اللَّه عزّ وجلّ حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذه بيده، فأدخله على اللَّه عزّ وجلّ، ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من اللَّه

عزّ وجلّ، فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه رجاؤه في اللَّه عزّ وجلّ، فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار، فجاءته دمعته التي بكى من خشية اللَّه عزّ وجلّ، فاستنقذته من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعدُ كما ترعد السعفة في ريح عاصف، فجاءه حُسن ظنه باللَّه عزّ وجلّ، فسكن رعدته ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط، ويحبو أحياناً، ويتعلق أحياناً، فجاءته صلاته عليَّ فأقامته على قدميه، وأنقذته، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا اللَّه، ففتحت له الأبواب، وأدخلته الجنة». رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب «الترغيب في الخصال المنجية، والترهيب من الخلال المردية»[1] بنى كتابه عليه وجعله شرحاً له، وقال: هذا حديث حسن جداً، ورواه عن سعيد بن المسيب: عمر بن ذر، وعلي بن زيد بن جدعان، وهلال أبو جبلة. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس اللَّه روحه يعظم شأن هذا الحديث، وبلغني عنه أنه كان يقول شواهد الصحة عليه.

والمقصود منه قوله ﷺ: «ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر اللَّه عزّ وجلّ، فطرد الشياطين عنه» فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري الذي شرحناه في هذه الرسالة. وقوله فيه: «وآمركم بذكر اللَّه عزّ وجلّ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ، فانطلقوا في طلبه سراعاً، وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً، فأحرز نفسه فيه»[2].

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر اللَّه عزّ وجلّ، وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قال ـ يعني: إذا خرج من بيته ـ بسم اللَّه، توكلت على اللَّه، لا حول ولا قوة إلا باللَّه، يقال له: كُفيت وهديت ووقيت، وتنحى عنه

(1) الطبراني في الأحاديث الطوال (39)، باختصار، وقال الهيثمي في المجمع (10/ 181)، في التعبير، باب: فيما رآه النبي ﷺ في المنام: «رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما سليمان بن أحمد الواسطي، وفي الآخر خالد بن عبد الرحمن المخزومي، وكلاهما ضعيف».

(2) الترمذي (2863)، في الأدب، باب: ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة وقال: «حسن، صحيح، غريب».

الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكفي ووقي؟» رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن[1].

قد تقدم قوله ﷺ: «مَن قال في يوم مائة مرة: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يُمسي»[2].

وذكر سفيان عن أبي الزبير، عن عبد اللَّه بن ضمرة، عن كعب قال: إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم اللَّه، قال الملك؛ هُديت، وإذا قال: توكلت على اللَّه، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا باللَّه، قال الملك: حُفظت. فيقول الشياطين بعضهم لبعض: ارجعوا، ليس لكم عليه سبيل، كيف لكم بمن كُفي وهُدي وحفظ؟

وقال أبو خلاد المصري: من دخل في الإسلام، دخل في حصن، ومن دخل المسجد، فقد دخل في حصنين، ومن جلس في حلقة يذكر اللَّه عزّ وجلّ فيها، فقد دخل في ثلاثة حصون.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إذا وضع العبد جنبه على فراشه، فقال: بسم اللَّه، وقرأ فاتحة الكتاب، أمن من شر الجن والإنس، ومن شر كل شيء»[3].

وفي «صحيح البخاري»، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، قال: ولاني رسول اللَّه ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو الطعام، فأخذته، فقال دعني فإني لا أعود... فذكر الحديث، وقال: فقال له في الثالثة: أعلمك كلمات ينفعك اللَّه بهن، إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها، فإنه لا يزال عليك من اللَّه حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله، فأصبح، فأخبر

---

(1) أبو داود (5095)، في الأدب، باب: ما يقول إذا خرج من بيته، والترمذي (3426)، في الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (9917)، في عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا خرج من بيته.

(2) البخاري (6403)، في الدعوات، باب: فضل التهليل، ومسلم (2691/ 28)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، واللفظ له.

(3) كنز العمال (41299)، وعزاه للديلمي عن أنس، بزيادة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وانظر: ضعيف الجامع (822).

النبي ﷺ بقوله، فقال: «صدقك، وهو كذوب»[1].

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا أوى الإنسان إلى فراشه، ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان، اختم بشر. فإذا ذكر اللَّه تعالى حتى يغلبه ـ يعني النوم ـ طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه، فإذا استيقظ، ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك، افتح بخير، ويقول الشيطان، افتح بشر، فإن قال: الحمد للَّه الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها، الحمد للَّه الذي يُمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، الحمد للَّه الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده الحمد للَّه الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه»[2].

وفي «الصحيحين»: من حديث سالم بن أبي الجعد، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أما لو إن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم اللَّه، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبداً»[3].

وذكر الحافظ أبو موسى، عن الحسن بن علي قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه اللَّه تعالى من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضار، ومن لص عاد: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ

(1) البخاري (3275)، في بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده.

(2) أبو يعلى (1791)، وقال الهيثمي في المجمع (10/ 120)، في الأذكار، باب: ما يقول إذا أوى إلى فراشه وإذا انتبه: «رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي، وهو ثقة».

(3) البخاري (141)، في الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، ومسلم (1434/ 116)، في النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، وأبو داود (2161)، في النكاح، باب: جامع النكاح، وابن ماجه (1919)، في النكاح، باب: ما يقول الرجل إذا دخلت عليه امرأته، وأحمد (1/ 217).

قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: 54 ـ 57]، وعشراً من الصافات [1 ـ 10]، وثلاث آيات من الرحمن ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ [الرحمن: 33، 34]، وخاتمة سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ . . . جَبَلٍ﴾ [الحشر: 21].

وقال محمد بن أبان: بينما رجل يصلي في المسجد، إذا هو بشيء إلى جنبه، فجفل منه، فقال: ليس عليك مني بأس، إنما جئتك في اللّه تعالى، ائت عروة فسله: ما الذي يتعوذ به؟ يعني من إبليس الأباليس، قال: قل آمنت باللّه العظيم وحده، وكفرت بالجبت والطاغوت، واعتصمت بالعروة الوثقى لا انفصام لها، واللّه سميع عليم، حسبي اللّه وكفى، سمع اللّه لمن دعا، ليس وراء اللّه منتهى.

وقال بشر بن منصور: عن وهب بن الورد قال: خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل، قال: فسمعت حساً أو أصواتاً شديدة، وجيء بسرير حتى وضع، وجاء شيء حتى جلس عليه، قال: واجتمعت إليه جنوده، ثم صرخ فقال: من لي بعروة بن الزبير؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء اللّه عزّ وجلّ من الأصوات، فقال واحد: أنا أكفيكه. قال: فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر، ثم أوشك الرجعة، فقال لا سبيل إلى عروة، قال: ويلك لم؟ قال: وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى، فلا نخلص إليه معهن، قال الرجل، فلما أصبحت، قلت لأهلي: جهزوني، فأتيت المدينة، فسألت عنه حتى دللت عليه، فإذا شيخ كبير، فقلت: أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فأبى أن يخبرني، فأخبرته بما رأيت وما سمعت، فقال: ما أدري، غير أني أقول إذا أصبحت: أمنت باللّه العظيم، وكفرت بالجبت والطاغوت، واستمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واللّه سميع عليم. إذا أصبحت قلت ثلاث مرات، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات.

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال: قال جبريل للنبي ﷺ: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فقل: أعوذ بكلمات اللّه التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، من شر طوارق الليل والنهار،

إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن[1].

وقد ثبت في «الصحيحين» أن الشيطان يهرب من الأذان.

قال سهيل بن أبي صالح؛ أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام أو صاحب لنا، فنادى منادٍ من حائط باسمه، فأشرف الذي معي على الحائط، فلم يرَ شيئاً، فذكرت ذلك لأبي، فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نودي بالصلاة، ولَّى وله حُصاص»[2].

وفي رواية: «إذا سمع النداء ولَّى وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين...»[3] الحديث.

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول اللَّه ﷺ؛ «استكثروا من قول لا إله إلا اللَّه والاستغفار، فإن الشيطان قال: قد أهلكتهم بالذنوب، وأهلكوني بقول لا إله إلا اللَّه والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون، فلا يستغفرون»[4].

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة قال: بينا رجل مسافر، إذْ مرَّ برجل نائم، ورأى عنده شيطانين، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه، اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال: لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل، فذهب إلى النائم، فلما دنا منه رجع قال: صدقت، فذهب، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين، فقال: أخبرني علي أيّ آية نمت؟ قال على هذه الآية:

---

(1) النسائي في الكبرى (10792)، في عمل اليوم والليلة، باب: ذكر ما يكب العفريت ويطفئ شعلته، وموصولاً، ومالك (2/ 951، 952) (10)، في الشعر، باب: ما يؤمر به التعوذ مرسلاً.

(2) مسلم (389/ 18)، في الصلاة، باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.

(3) البخاري (608)، في الأذان، باب: فضل التأذين، ومسلم (389/ 9)، في الصلاة، باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، وأبو داود (516)، في الصلاة، باب: رفع الصوت بالأذان، والنسائي (670) في الأذان، باب: فضل التأذين.

(4) أبو يعلى (136)، وقال الهيثمي في المجمع (10/ 207)، في التوبة، باب: ما جاء في الاستغفار: «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54].

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم: كنت أرى في داري فقيل: يا أبا النضر، تحول عن جوارنا، قال: فاشتد ذلك عليّ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس، والمحاربي، وأبي أسامة، فكتب إليَّ المحاربي: إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها، فنزل بهم ركب، فشكوا ذلك إليهم، فدعوا بدلْو من ماء، ثم تكلموا بهذا الكلام، فصبوه في البئر، فخرجت نار من البئر، فطفئت على رأس البئر، قال أبو النضر: فأخذت تَوْراً من ماء، ثم تكلمت فيه بهذا الكلام، ثم تتبعت به زوايا الدار، فرششته، فصاحوا بي: أحرقتنا، نحن نتحول عنك. وهو: بسم اللَّه، أمسينا باللَّه الذي ليس منه شيء ممتنع، وبعزة اللَّه التي لا ترام ولا تضام، وبسلطان اللَّه المنيع نحتجب، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة، ومن شر شياطين الإنس والجن، ومن شر كل معلن أو مسر، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر إبليس وجنوده، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إنَّ ربي على صراط مستقيم، أعوذ باللَّه بما استعاذ به موسى وعيسى وإبراهيم الذي وفَّى، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر إبليس وجنوده ومن شره ما يبغى. أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم اللَّه الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: 1 ـ 10].

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد: «لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر اللَّه تعالى»[1][2].

---

(1) الوابل الصيب (84 ـ 177).

(2) الترمذي (2863)، في الأدب، باب: ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة وقال: «حسن صحيح غريب».

باب منه

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا اللَّه وحده تحمل اللَّه سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله اللَّه همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه يعصر أضلاعه في نفخ غيره. فكل من أعرض عن عبودية اللَّه وطاعته ومحبته بُلِي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: 36][1].

قال سفيان بن عيينة: لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن. فقال له له قائل: فأين في القرآن: «أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة؟» فقال: في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ [الزخرف: 36].

فصل

في أفضل الذكر

وأما المسألة الثانية[2] وهي: تفضيل «سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته»[3] على مجرد الذكر بسبحان اللَّه أضعافاً مضاعفة، فإن ما يقوم بقلب الذاكر حين يقول: «سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه» من معرفته وتنزيهه وتعظيمه من هذا القدر المذكور من العدد: أعظم مما يقوم بقلب القائل: «سبحان اللَّه» فقط.

وهذا يُسمى: الذكر المضاعف، وهو أعظم ثناءً من الذكر المفرد.

فلهذا كان أفضل منه، وهذا إنما يظهر في معرفة هذا الذكر وفهمه. فإن قول المسبح: «سبحان اللَّه بحمده عدد خلقه» يتضمن إنشاءً وإخباراً عما يستحقه الرّبُّ من

---

(1) الفوائد (14/ 115).

(2) أي من المسائل التي سئل عنها الإمام ابن القيم رحمه اللَّه.

(3) مسلم (2726/ 79)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، وأبو داود (1503)، في الصلاة، باب: التسبيح بالحصى، والترمذي (3555)، في الدعوات، باب (104)، والنسائي (1352)، في السهو، باب: نوع آخر من عدد التسبيح.

التسبيح عدد كل مخلوق كان أو هو كائن إلى ما لا نهاية له.

فتضمّن الإخبار عن تنزيهه الربّ وتعظيمه والثناء عليه هذا العدد العظيم، الذي لا يبلغه العادُّون، ولا يحصيه المحصون. وتضمن إنشاء العبد لتسبيح هذا شأنه، لا أن ما أتى به العبد من التسبيح هذا قدره وعدده، بل أخبر أن ما يستحقه الرب سبحانه وتعالى من التسبيح: هو تسبيح يبلغ هذا العدد الذي لو كان في العدد ما يزيد لذكره، فإن تجدد المخلوقات لا ينتهي عدداً، ولا يُحصى الحاضر.

وكذلك قوله: «ورضا نفسه» فهو يتضمن أمرين عظيمين: أحدُهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو والعظمة والجلال سيَّان ولرضا نفسه كما أنه في الأول مخبر عن تسبيح مساوٍ لعدد خلقه، ولا ريب أن رضا نفس الرب لا نهاية له في العظمة والوصف. والتسبيح: ثناءً عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه.

فإذا كانت أوصاف كماله، ونعوتُ جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هي أعظم من ذلك وأجل، كان الثناء عليه بها كذلك إذا هو تابع لها إخباراً وإنشاءً. وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول من غير عكس.

وإذا كان إحسانه سبحانه وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له، وهو من موجبات رضاه وثمرته فكيف بصفة الرضا؟

وفي الأثر: «إذا باركتُ لم يكن لبركتي منتهى» فكيف بالصفة التي صدرت عنها البركة؟

والرضا يستلزم المحبة، والإحسان، والجود، والبر، والعفو، والصفح، والمغفرة.

والخلق: يستلزم العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والحكمة. وكلُّ ذلك داخل في رضا نفسه، وصفة خلقه.

وقوله: «وزنة عرشه» فيه إثبات للعرش، وإضافته إلى الربّ سبحانه وتعالى وأنه أثقل المخلوقات على الإطلاق، إذ لو كان شيء أثقل منه لوزن به التسبيح. وهذا يرد على من يقول: إن العرش ليس بثقيل ولا خفيف. وهذا لم يعرف العرش، ولا قدره حق قدره.

فالتضعيف الأول: للعدد والكمية، والثاني: للصفة والكيفية، والثالث: للعظم والثقل، وليس للمقدار.

وقوله: «ومداد كلماته» هذا يعمّ الأقسام الثلاثة ويشملها. فإن مداد كلماته سبحانه وتعالى لا نهاية لقدره، ولا لصفته، ولا لعدده. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27].

ومعنى هذا: أنه لو فُرِض البحرُ مداداً، وبعده سبعة أبحر تمدُّه كلُّها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً وهو ما قام منها على ساق من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد. فسبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

فأين هذا من وصف من يصفه أنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزأ ولا له بعضٌ ولا كلٌ، ولا هو سور وآيات، ولا حُروف وكلمات؟

والمقصود: أن في هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال ما يوجب أن يكون أفضل من غيره، وأنه لو وزن غيره به لوزن وزاد عليه.

وهذا بعض ما في هذه الكلمات من المعرفة باللَّه، والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم، مع اقترانه بالحمد المتضمن لثلاثة أصول:

أحدها: إثبات صفات الكمال له سبحانه، والثناء عليه.

الثاني: محبته والرضا به.

الثالث: فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتنزيه على أكمل الوجوه، وأعظمها قدراً، وأكثرها عدداً، وأجزلها وصفاً، واستحضر العبد ذلك عند التسبيح، وقام بقلبه معناه، كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره، وباللَّه التوفيق[1].

(1) المنار المنيف (34 ـ 38).

وأيضاً

من الذاكرين: من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر. ومنهم: من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطآ جميعاً. **فالأول**: ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه. **والثاني**: ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه. فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معاينه ومقاصده[1].

فصل

في بيان أن الذكر أفضل من الدعاء

الذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناءً على اللَّه عزّ وجلّ بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟

ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[2].

ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد اللَّه تعالى، والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته. كما في حديث فضالة بن عبيد: أن رسول اللَّه ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد اللَّه تعالى، ولم يصلِّ على النبي ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ: «لقد عجل هذا» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عزّ وجلّ والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء». رواه الإمام أحمد،

---

(1) بدائع الفوائد (260).

(2) الترمذي (2926)، بلفظ: «من شغله القرآن عن ذكري» في فضائل القرآن، باب: (25)، وقال: «حسن غريب»، والدارمي (2/ 441)، في فضائل القرآن، باب: فضل كلام اللَّه على سائر الكلام. كلاهما عن أبي سعيد الخدري. وضعفه الألباني.

والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم في «صحيحه»[1].

وهكذا دعاء ذي النون عليه السلام الذي قال فيه النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج اللَّه كُربته: لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين» وفي الترمذي: «دعوة أخي ذي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت «لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين» فإنه لم يدْعُ بها مُسلم في شيء قط إلا استجاب اللَّه له»[2].

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام.

ومنه قوله ﷺ في دعاء الكرب: «لا إله إلا اللَّه العظيم الحليم، لا إله إلا اللَّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللَّه رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[3].

ومنه حديث بريدة الأسلمي الذي رواه أهل السنن، وابن حبان في «صحيحه»: «أن رسول اللَّه ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك اللَّه لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل اللَّه باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطي»[4].

---

(1) أحمد (6/ 18)، والترمذي (3477)، في الدعوات، باب: (65) وقال: «حسن وغريب» والحاكم في المستدرك (1/ 230)، في الصلاة، باب: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه والثناء عليه، وقال: «صحيح على شرط مسلم لم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(2) الترمذي (3505)، في الدعوات، باب (82)، وأحمد (1/ 170)، وقال الشيخ شاكر (1462)، «إسناده صحيح»، والحاكم في المستدرك (1/ 505)، في الدعاء، باب: من دعا بدعوة ذي النون استجاب اللَّه له. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(3) البخاري (6346)، في الدعوات، باب: الدعاء عند الكرب، ومسلم (2730/ 83)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: دعاء الكرب، والترمذي (3435)، في الدعوات، باب: ما جاء ما يقول عند الكرب، وابن ماجه (3883)، في الدعاء، باب: عند الكرب.

(4) أبو داود (1493)، في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (3475)، في الدعوات، باب: جامع الدعوات: وقال: حسن غريب، وابن ماجه (3857)، في الدعاء، باب: اسم اللَّه الأعظم، وابن حبان (889)، في الرقائق، باب: الأدعيه.

وروى أبو داود، والنسائي من حديث أنس: أنه كان مع النبي ﷺ جالساً ورجل يصلي ثم دعا: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم». فقال النبي ﷺ: «لقد دعا اللَّه باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطي»[1].

فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم اللَّه الأعظم، فكان ذكر اللَّه عزّ وجلّ والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجاباً.

فالدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته، وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرّض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه، وأوصاف المسؤول مقتضى من اللَّه، فاجتمع المقتضى من السائل، والمقتضى من المسؤول في الدعاء، وكان أبلغ وألطف موقعاً، وأتم معرفة وعبودية.

وأنت ترى في الشاهد وللَّه المثل الأعلى أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره، وذكر حاجته هو، وفقره ومسكنته، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب لقضاء حاجته.

فإذا قال له: أنت جودك قد سارت به الركبان، وفضلك كالشمس لا تنكر، ونحو ذلك، وقد بلغت بي الحاجة والضرورة مبلغاً لا صبر معه ونحو ذلك، كان أبلغ في قضاء حاجته من أن يقول ابتداء: أعطني كذا وكذا.

فإذا عرفت هذا، فتأمل قول موسى ﷺ في دعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24] وقول ذي النون ﷺ في دعائه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] وقول أبينا آدم ﷺ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23].

---

(1) أبو داود (1495)، في الصلاة، باب: الدعاء، والنسائي (1300)، في السهو، باب: الدعاء بعد الذكر.

وفي «الصحيحين»: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علّمني دعاء أدعو به في صلاتي: فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»[1].

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر، بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلى ربه عزّ وجلّ بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معاً، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية.

فصل

في أن قراءة القرآن أفضل من الذكر

قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجرداً.

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعينه، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة، وكذلك التسميع[2] والتحميد في محلهما أفضل من القراءة، وكذلك التشهد، وكذلك: «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل، والتسبيح، والتكبير، والتحميد ـ أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة، وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه، لكن لكل مقام مقال، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره، اختلت الحكمة، وفاتت المصلحة المطلوبة منه.

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثاله:

---

(1) في البخاري (834)، في الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، ومسلم (2705/ 48)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

(2) أي: سمع الله لمن حمده.

أن يتفكر في ذنوبه، فيحدث ذلك له توبة واستغفار، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحوطه.

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها، اجتمع قلبه كله على اللَّه تعالى، وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطي كل ذي حق حقه، ويوضع كل شيء موضعه.

فللعين موضع، وللرِّجل موضع، وللماء موضع، وللحم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، واللَّه تعالى الموفق.

وهكذا الصابون والأشنان، أنفع للثوب في وقت، والتجمير وماء الورد وكيُّه أنفع له في وقت.

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد، التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً، فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لي رحمه اللَّه تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟

ومن هذا الباب: أن سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الأخلاص: 1] تعدل ثلث القرآن، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث، والطلاق، والخلع، والعدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر الدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، كانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جداً، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منزلها، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها، فيربح إبليس الفضل الذي بينهما، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها وإن كان ذلك وقته، فتفوته مصلحته بالكلية، لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثواباً وأعظم أجراً.

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال، وتفاوتها، ومقاصدها، وفقه في إعطاء كل عمل منها حقه، وتنزيله في مرتبته، وتفويته لما هو أهم منه، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل، لإمكان تداركه والعود إليه، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه، فالاشتغال به أولى ـ وهذا كترك القراءة لرد السلام، وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل، لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت. واللَّه الموفق[1].

فصل

في انواع الذكر

❑ الذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

وهذا أيضاً نوعان:

أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذكر، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث، نحو: «سبحان اللَّه والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر»، و«سبحان اللَّه وبحمده»، و«لا إله إلا اللَّه وحدهُ لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير»، ونحو ذلك.

فأفضل هذا النوع، أجمعه للثناء، وأعمه، نحو «سبحان اللَّه عدد خلقه»، فهذا أفضل من مجرد «سبحان اللَّه»، وقولك: «الحمد للَّه عدد ما خلق في السماء، وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق» أفضل من مجرد قولك: «الحمد للَّه».

وهذا في حديث جويرية، أن النبي ﷺ قال لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه، سبحان اللَّه رضا نفسه، سبحان اللَّه زنة عرشه، سبحان اللَّه مداد كلماته» رواه مسلم[2].

---

(1) الوابل الصيب (182 ـ 189).

(2) مسلم (2726/ 79)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم.

وفي الترمذي وسنن أبي داود، عن سعد بن أبي وقاص: أنه دخل مع رسول اللَّه ﷺ على امرأة بين يديها نوىً أو حصى تسبّح بها، فقال: «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل» فقال: «سبحان اللَّه عدد ما خلق في السماء، وسبحان اللَّه عدد ما خلق في الأرض، وسبحان اللَّه عدد ما بين ذلك، وسبحان اللَّه عدد ما هو خالق، واللَّه أكبر مثل ذلك، والحمد للَّه مثل ذلك، ولا إله إلا اللَّه مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه مثل ذلك»[1].

النوع الثاني: الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: اللَّه عزّ وجلّ يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وهو على كل شيءٍ قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته الواجد ونحو ذلك.

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به عليه رسول اللَّه ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع: حمْدٌ، وثناءٌ، ومجْدٌ.

فالحمد للَّه الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى، مع محبته والرضا به فلا يكون المحب الساكت حامداً، ولا المثني بلا محبة حامداً حتى تجتمع له المحبة والثناء، فإن كرر المحامد شيئاً بعد شيء كانت ثناءً، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً.

وقد جمع اللَّه تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة: «فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال اللَّه: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مجدني عبدي»[2].

---

(1) أبو داود (1500)، في الصلاة، باب: التسبيح بالحصى واللفظ له، والترمذي (3568)، في الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة، وقال: «حسن غريب». وقال الألباني: «منكر».

(2) جزء حديث رواه مسلم (395/ 38)، في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، ومالك (1/ 84، 85) (39)، في الصلاة، باب: القراءة خلف الإمام.

❑ النوع الثاني من الذكر:

ذكر أمره ونهيه وأحكامه.

وهو أيضاً نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره، فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجلُّه وأعظمه فائدة.

فهذا الذكر من الفقه الأكبر، وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية.

ومن ذكره سبحانه وتعالى: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضاً من أجل أنواع الذكر.

❑ فهذه خمسة أنواع:

وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر.

وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية.

وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة.

فأفضل الذكر: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويزع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار، وإن أثمر شيئاً منها، فثمرة ضعيفة[1].

---

(1) الوابل الصيب (178 ـ 181).

فصل

في حكم رفع الصوت بالذكر

رفع الأصوات بالذكر المشروع مكروه إلا حيث جاءت به السنة كالآذان والتلبية، وفي الصحيح عن أبي موسى قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا ارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[1] وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 55]، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: 205]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: 3].

وقال الحسن البصري: «رفع الصوت بالدعاء بدعة» ونص عليه الإمام أحمد وغيره.

وقال قيس بن عباد من كبار التابعين: «كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال». وهذه المواطن الثلاث تطلب فيها النفوس الحركة الشديدة عند الذكر والدعاء لما فيه من الحلاوة ومحبة ذكر الله ودعائه وعند الجنائز بالحزن والبكاء وعند القتال بالغضب والحمية.

ومضرة رفع الصوت بذلك أعظم من منفعته، بل قد يكون ضرراً محضاً وإن كانت النفس تشتفي به، وتبرأ النبي ﷺ من الصالقة ـ وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة ـ فكيف بالمغنية التي ترفع صوتها بالغناء، وأما القتال فالسنة فيه أيضاً خفض الصوت.

وأما هذه الدبادب والأبواق والطبول فإنها لم تكن على عهد الخلفاء الراشدين ولا من بعدهم من أمراء المسلمين، وإنما حدثت من جهة بعض ملوك المشرق من أهل فارس، وانتشرت في الأرض وتداولها الملوك حتى ربا فيها الصغير وهرم الكبير لا يعرفون غير ذلك وينكرون على من ينكره.

ويزعم بعض الجهال أن هذا من إحداث عثمان وليس الأمر كذلك، بل ولا من فعل

---

(1) البخاري (6384)، في الدعوات، باب: الدعاء إذا علا عقبة، ومسلم (2704/ 44)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، وأبو داود (1528)، في الصلاة، باب: في الاستغفار، وأحمد (4/ 394).

من بعده من الخلفاء، وإنما ورثته الأمة من الأعاجم ولم يكن منه بد تحقيقاً لقول النبي ﷺ: «لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع» فقالوا: فارس والروم قال: «ومن الناس إلا هؤلاء»[1] وكما في الحديث الآخر: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا حجر ضبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول اللَّه، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[2].

والحديثان في الصحيح، فأخبر أنه لا بد من أن يكون في الأمة من يتشبه باليهود والنصارى وبفارس والروم.

وظهور هذا الشبه في الطوائف إنما يعرفه من عرف الحق وضده وعرف الواجب الواقع، وطابق بين هذا وهذا، ووازن بين ما عليه الناس اليوم وبين ما كان عليه السلف الصالح، فإذا كان رفع الصوت في مواطن العبادات بالذكر والدعاء الذي يحبه اللَّه ويرضاه بدعة مكروهة لا يتقرب بها إلى اللَّه، فكيف يكون رفعه بالغناء الذي هو قرآن الشيطان قربة وطاعة، وقد سماه النبي ﷺ صوتاً، فاجراً أحمق ونهى عنه[3].

فصل

في آداب دعاء العبادة ودعاء المسألة

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: 55، 56] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان. فإن دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً، والمعبود لا بد وأن يكون مالكاً للنفع والضر؛ ولهذا

---

(1) الكلام على مسألة السماع (348 ـ 351).

(2) البخاري (7319)، في الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب: قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

(3) أحمد (4/ 125)، والطبراني في الكبير (7/ 281) رقم (7140)، وقال الهيثمي في المجمع (7/ 264)، في الفتن، باب في اتباع سنن من مضى: «ورجاله مختلف فيهم».

أنكر الله تعالى على عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: 18]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: 76]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: 66، 76]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: 69 ـ 73]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: 3]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: 55]، فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يدعي للنفع والضر دعاء المسألة ويدعي خوفاً ورجاءً ودعاءَ العبادة.

فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: 186] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله، فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له، وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً هي من هذا القبيل.

ومثال ذلك قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: 78]، فسر الدلوك: بالزوال، وفسر: بالغروب، وحكيا قولين في كتب التفسير وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك: هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبدأ ومنتهى، فمبدؤه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه، ومثاله أيضاً تفسير الغاسق بالليل والقمر وإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الفرقان: 77]، قيل:

لولا دعاؤكم إياه، وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، وعلى الأول مضافاً إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين، وعلى هذا فالمراد به نوعاً الدعاء وهو في دعاء العبادة أظهر، أي ما يعبؤ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه. وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، فالدعاء يتضمن النوعين وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]، فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

وقد روى سفيان عن منصور، عن ذر، عن نسيع الكندي، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ رواه الترمذي وقال: حسن صحيح[1].

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: 73]، وقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ [النساء: 117]، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ [فصلت: 48]، وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة.

❑ فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع أخرى بأنه العبادة كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: 92، 93] وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: 109]، وهو كثير في القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

---

(1) الترمذي (3372)، في الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء.

الثالث: أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى اللَّه، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا اللَّه وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم، ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: 14] هو دعاء العبادة والمعنى: اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته، لا تعبدوا معه غيره.

أما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: 39] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا.

وأما قول زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4] فقد قيل: إنه دعاء المسألة، والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه.

كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا وكذا، قال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، وقضى حاجته، وهذا ظاهر هاهنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110]، فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة: يا اللَّه، ومرة: يا رحمن فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يا رحمن، يا رحيم، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، وقيل: إن الدعاء هاهنا بمعنى التسمية، كقولهم دعوت ولدي سعيداً، وادعه بعبد اللَّه ونحوه. والمعنى: سموا اللَّه أو سموا الرحمن.

فالدعاء هاهنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري. والذي حمله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فإن المراد بتعدده معنى أي وعمومها هاهنا تعدد الأسماء

ليس إلا، والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء اللَّه تعالى إما اللَّه وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في (له) يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى: تسموا، فتأمله. والمعنى: أيّاً ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم. واللَّه أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: 28]، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن اللَّه سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب، وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: 14] أي: لن نعبد غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات: 125]، وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: 64] فهذا من دعاء المسألة يبكتهم اللَّه عزّ وجلّ ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد: اعبدوهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: 52].

وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة وأنها: هل نقلت عن مسماها في اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة، أو استعملت في هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي، أو هي باقية على الوضع اللغوي وضم إليها أركان وشرائط؟ وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شيء من ذلك، فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء، إما دعاء عبادة وثناء أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء، فتأمله، إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55] يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة؛ ولهذا أمر بإخفائه وإسراره.

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن اللَّه تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وإن اللَّه ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3][1].

فصل

في أنفع الدعاء

❑ الناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة باللَّه عليها. فعبادة اللَّه غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه فقال: «يا معاذ، واللَّه إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[2].

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللَّه روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]، ومقابل هؤلاء: القسم الثاني. وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به. فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمدُّ هؤلاء

---

(1) بدائع الفوائد (3/ 2 ـ 6).

(2) أبو داود (1522)، في الصلاة، باب: في الاستغفار، وأحمد (5/ 245)، والنسائي في الكبرى (9937)، في عمل اليوم والليلة، باب: الحث على قول: «رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» دبر الصلوات، والحاكم في المستدرك (1/ 273)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وهؤلاء. وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتَّعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبُعده عن اللَّه وطرده عنه.

وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عوناً على طاعته: كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره. وليعلم أن إجابة اللَّه لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له. فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً، لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه، فيظن ـ بجهله ـ أن اللَّه لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به. والمعصوم مَنْ عصمه اللَّه، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار. وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فواللَّه لو كشف عن حاصله وسره لرأي هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بداً، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده، قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: 15 ـ 17]. أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء

مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط، فيكون حظه السخط.

فرد اللَّه سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغبن لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ: أخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتّر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، هو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

فصل

في الأخذ بوسائل قبول الدعاء

لما كان سؤال اللَّه الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرف المواهب، علم اللَّه عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد الترمذي.

أحدهما: حديث عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك اللَّه الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل اللَّه باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[2].

---

(1) مدارج السالكين (1/ 78 ـ 80).

(2) أبو داود (1493)، في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (3475)، في الدعوات، باب: جامع الدعوات وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (3857)، في الدعاء، باب: اسم اللَّه الأعظم،

قال الترمذي: حديث صحيح.

فهذا توسل إلى اللَّه بتوحيده وشهادة الداعي له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد»، وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته».

وفي رواية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد».

وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله»، وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 4]، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنّة والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: أن رسول اللَّه ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان، بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيّوم فقال: «لقد سأل اللَّه باسمه الأعظم»[1].

فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته، وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما: التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب ـ وهو الهداية بعد الوسيلتين ـ فالداعي به حقيق بالإجابة ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل. رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، وعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[2] فذكر التوسل إليه

وابن حبّان (889)، في الرقائق، باب: الأدعية.

(1) أبو داود (1495)، في الكتاب والباب السابقين، والنسائي (1300)، في السهو، باب: الدعاء بعد الذكر.

(2) البخاري (1120)، في التهجد، باب: التهجد بالليل.

بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثم سأله المغفرة[1].

وأيضاً

إذا جُمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي: .

الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضي الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر.

وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقة.

واستقبل الداعي القبلة.

وكان على طهارة.

ورفع يديه إلى اللَّه.

وبدأ بحمد اللَّه والثناء عليه.

ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله.

ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار.

ثم دخل على اللَّه، وألح عليه المسألة، وتملَّقه ودعاه رغبة ورهبة.

وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده.

وقدّم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبرت النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

فمنها ما في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللَّه لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «لقد سأل اللَّه

(1) مدارج السالكين (1/ 23، 24).

بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب» وفي لفظ: «لقد سألت اللَّه باسمه الأعظم»[1].

في السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك: أنه كان مع رسول اللَّه ﷺ جالساً ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا اللَّه باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[2].

وأخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده.

وفي جامع الترمذي، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم اللَّه الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: 163]وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[3].

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «ألظُّوا بياذا الجلال الإكرام»[4]، يعني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها.

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على اللَّه، أو حسنة تقدمت منه جعل اللَّه سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل

---

(1) سبق تخريجه بالصفحة السابقة.
(2) سبق تخريجه قريباً.
(3) الترمذي (3478)، في الدعوات، باب: (65).
(4) أحمد (4/ 177)، والحاكم في المستدرك (1/ 499)، في الدعاء، باب ألظوا بياذا الجلال والإكرام، وقال: «صحيح»، ووافقه الذهبي.

رجل دواءً نافعاً، في الوقت الذي ينبغي استعماله، على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كافٍ في حصل المطلوب، كان غالطاً، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب، فيظن الجاهل أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى اللّه، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت اللّه، كان أفضل وأحب إلى اللّه.

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدّه فقط. فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر[1].

فائـــدة

في قوله ﷺ: «اتقـوا اللّـه وأجملـوا في الطلـب»[2]

جمع النبي ﷺ في قوله: «فاتقوا اللّه وأجملوا في الطلب» من مصالح الدنيا والآخرة، ونعيمها ولذاتها إنما ينال بتقوى اللّه، وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكد والشقاء في طلب الدنيا، إنما ينال بالإجمال في الطلب فمن اتقى اللّه فاز بلذة الآخرة ونعيمها ومن أجمل في الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها، فاللّه المستعان.

قـد نـادتْ الـدُّنـيـا عـلـى نـفـسِـهـا ... لـو كـانَ فـي ذا الـخـلـقِ مَـنْ يـسـمـعُ
كـمْ واثـقٍ بـالـعـيـشِ أهـلـكْـتُـهُ ... وجـامـعٍ فـرَّقْـتُ مـا يـجـمـعُ

(1) الداء والدواء (9 ـ 11، 14، 15).

(2) ابن ماجه (2144)، في التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة، وفي الزوائد: «إسناده ضعيف؛ لأن فيه الوليد بن مسلم وابن جريج وكل منهما يدلس».

فصل

في الأخذ بالأسباب مع الدعاء

سمع بعض أهل العلم رجلاً يدعو بالعافية فقال له: يا هذا استعمل الأدوية، وادع بالعافية فإن اللَّه تعالى إذا كان قد جعل إلى العافية طريقاً وهو التداوي. ودعوته بالعافية ربما كان جوابه: قد عافيتك بما جعلته ووضعته سبباً للعافية، وما هذا إلا بمثابة من بين زرعه وبين الماء ثلمة يدخل منها الماء يسقي زرعه، فجعل يصلي ويستسقي لزرعه ويطلب المطر، مع قدرته على فتح تلك الثلمة لسقي زرعه، فإن ذلك لا يحسن منه شرعاً ولا عقلاً، ولم يكن ذلك إلا لأنه سبق بإعطاء الأسباب، فهو إعطاء بأحد الطريقين، وله أن يعطي بسبب وبغير سبب.

وبالسبب ليتبين به ما أفاض من صنعه، وما أودع في مخلوقاته من القوى والطبائع والمنافع.

وإعطاؤه بغير سبب ليتبين للعباد أن القدرة غير مفتقرة إلى واسطة في فعله، فإذا دعوته بالعافية فاستنقذ ما أعطاك من العتائد والأرزاق، فإن وصلت بها وإلا فاطلب طلب من أفلس من مطلوبه فرغب إلى المعدن، كما قال سيد الخلائق: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1].

قلت: هذا كلام حسن، وأكمل منه أن يبذل الأسباب، ويسأل سؤال من لم يدل بشيء البتة.

❑ والناس في المقام أربعة أقسام:

فأعجزهم من لم يبذل السبب ولم يكثر الطلب، فذاك أمهن الخلق.

---

(1) أبو داود (2134)، في النكاح، باب: في القسم بين النساء، والترمذي (1140)، في النكاح، باب: ما جاء في التسوية بين الضرائر، والنسائي (3943)، في عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، وابن ماجه (1971)، في النكاح، باب: القسمة بين النساء، وأحمد (6/ 144)، وضعفه الألباني.

والثاني: مقابله وهو أحزم الناس من أدلى بالأسباب التي نصبها اللَّه مفضية إلى المطلوب، وسأل سؤال من لم يدل بسبب أصلاً، بل سؤال مفلس بائس ليس له حيلة ولا وسيلة.

الثالث: من استعمل الأسباب وصرف همته إليها، وقصر نظره عليها، فهذا وإن كان له حظ مما رتبه اللَّه عليها ولكنه منقوص منقطع نصب الآفات المعارضات، لا يحصل له إلا بعد جهد، فإذا حصل فهو وشيك الزوال سريع الانتقال غير معقب له توحيداً ولا معرفة، ولا كان سبباً لفتح الباب بينه وبين معبوده.

الرابع: مقابله وهو رجل نبذ الأسباب وراء ظهره، وأقبل على الطلب والدعاء والابتهال فهذا يحمد في موضع ويذم في موضع ويشينه الأمر في موضع.

فيحمد عند كون تلك الأسباب غير مأمور بها، إذ فيها مضرة عليه في دينه، فإذا تركها وأقبل على السؤال والابتهال والتضرع للَّه كان محموداً، ويذم حيث كانت الأسباب مأموراً بها فتركها أقبل على الدعاء، كمن حصره العدو وأمره بجهاده، فترك جهاده وأقبل على الدعاء والتضرع أن يصرفه اللَّه عنه، وكمن جهده العطش وهو قادر على تناول الماء، فتركه وأقبل يسأل اللَّه تعالى أن يرويه، وكمن أمكنه التداوي الشرعي فتركه وأقبل يسأل العافية، ونظائر هذا.

ويشتبه الأمر في الأسباب التي لا يتبين له عواقبها وفيها بعض الاشتباه ولها لوازم قد يعجز عنها، وقد يتولد عنها ما يعود بنقصان دينه، فهذا موضع اشتباه وخطر، والحاكم في ذلك كله الأمر، فإن خفي فالاستخارة وأمر اللَّه وراء ذلك[1].

فصل

في فوائد إخفاء الدعاء

❑ **وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:**

أحدها: أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن اللَّه يسمع دعاء الخفي وليس كالذي قال: إن اللَّه يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا!

---

(1) بدائع الفوائد (3/ 178 ـ 180).

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

وثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جداً: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: 3] فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليساً له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر، فقال: «اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[1]،

(1) البخاري (6384)، في الدعوات، باب: الدعاء إذا علا عقبة، ومسلم (2704/ 44)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، وأبو داود (1528)، في الصلاة، باب: في الاستغفار، وأحمد (4/ 394).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ﷺ، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً»[2]، فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر، وبنوع آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب التحفة المكية، على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبِّر عنه بغير العبارة النبوية أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزلّ قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام، وساء تعبيرهم فوقعوا في أنواع الطامات والشطح، وقابلهم من غلط حجابهم فأنكر محب العبد لربه جملة وقربه منه وأعاد ذلك إلى مجرد

---

(1) ابن جرير في التفسير 2/ 92.

(2) البخاري (8537)، في التوحيد، باب: ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، ومسلم (2675/ 1)، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الحث على ذكر الله تعالى، والترمذي (3603)، في الدعوات، باب: في حسن الظن بالله ـ عزّ وجلّ، وابن ماجه (3821)، في الأدب، باب: فضل العمل، وأحمد (2/ 251).

الصواب المخلوف فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب التحفة أكثر من مائة طريق والمقصود هاهنا الكلام على هذه الآية.

وسابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه، وتضعف بعض قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعاً صوته، فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته.

وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفي دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس فشوشت عليه ولا بد، وما نعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفي، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم الإقبال على اللَّه والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وألا يقصد إظهارها له.

وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5]، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع اللَّه قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه؛ ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع اللَّه وألا يطلعوا عليه أحداً، ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك:

مَنْ ساروه فأبدى السرَّ مجتهداً ... لم يأمنوه على الأسرارِ ما عاشا
وأبعدُوه فلمْ يظفرْ بقربِهِمُ ... وأبدلوه مكانَ الأُنسِ إيحاشا
لا يأمنون مذيعاً بعضَ سرِّهُمُ ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتماناً لأحوالهم مع اللَّه، ولا سيما للمبتدي والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع اللَّه ليقتدي به ويؤتم به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على اللَّه، فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد للَّه»[1] فسمي الحمد للَّه دعاء وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء؛ والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن يسمي داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال، فهو داعٍ بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إنَّ شيمتَك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه، والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: 205] فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح.

وقد تقدم حديث أبي موسى: كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[2].

---

(1) الترمذي (3383)، في الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، وقال: «غريب»، وابن ماجه (3800)، في الأدب، باب: فضل الحامدين.

(2) سبق تخريجه قريباً.

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: 205] وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذاكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر اللَّه أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على اللَّه ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى، فقال له: فقلب له المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال: وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه فقال له: هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر اللَّه، وحفظ قلبه مع اللَّه، فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر، ويراعي حفظ قلبه أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة، وسبب هذا عدم اقتران الخوف من اللَّه بحبه وإرادته؛ ولهذا قال بعض السلف: من عبد اللَّه بالحب وحده فهو زنديق، من عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن.

وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب.

وصنف بعضهم في ذلك مصنفاً وذكر فيه أثراً مكذوباً: «إذا أحب اللَّه العبد لم تضره الذنوب».

وهذا كذب قطعاً، منافٍ للإسلام، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن لو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ، وأما عن رسول اللَّه ﷺ فمعاذ اللَّه من ذلك فله محمل وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب منافٍ لكونه محباً للَّه، وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحي أثره، ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب إلى اللَّه زال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنى صحيح.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب، والرّجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف، خرجت عن الطريق وضلت عنه.

فما حفظت حدود اللَّه ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فساداً لا يرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه، فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء، مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضاً، فإنه قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: 205] فلم يحتج بعده أن يقول: خفية، وقال في الدعاء: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: 56] فلم يحتج أن يقول في الأول: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة.

وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين[1].

(1) بدائع الفوائد (3/ 6 ـ 12).

فصل

في الاعتداء في الدعاء

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55] قيل: المراد: أنه لا يحب المعتدين في الدعاء؛ كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعامة: أن عبد اللَّه بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني سل اللَّه الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»[1].

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله اللَّه، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام الشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة اللَّه، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه اللَّه ولا يحب سائله وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء.

قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مراداً بها، فهو من جملة المراد.، واللَّه لا يحب المعتدين في كل شيء، دعاء أو غيره، كما قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: 187].

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدواناً، فإن أعظم العدوان الشرك، وهو وضع

(1) البيهقي في الكبرى (1/ 197)، في الطهارة.

العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلاً في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ومن العدوان: أن يدعوه غير متضرع، بل دعاء مدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجمع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتدٍ.

ومن الاعتداء: أن تعبده بما لم يشرعه وتثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب.

❑ **وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:**

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى مرضي له، وهو الدعاء تضرعاً وخفية.

والثاني: مكروه له منغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه اللَّه وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه اللَّه فأي خير يناله.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين داعٍ للَّه تضرعاً وخفية، ومعتدٍ بترك ذلك[1].

فصل

في معنى دعاء النبي ﷺ: «اللهمَّ طهرني من خطاياي بالماء والثَّلج والبَرَد»

سألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ: «اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»، كيف يطهر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك وقوله في لفظ آخر: «والماء البارد» والحار أبلغ في الإنقاء؟

---

(1) بدائع الفوائد (3/ 12 ـ 14).

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً، فيرتخي القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزل الحطب الذي يمد النار ويوقدها؛ ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفي النار، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا. هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

❑ فاعلم أن هاهنا أربعة أمور:

أمران حسيان وأمران معنويان، فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسِّيَّان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها ومعنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا، فذكر النبي ﷺ من كل شطر قسماً نبه به على القسم الآخر، فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار وحسن البيان كما في حديث الدعاء بعد الوضوء «اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين» فإنه يتضمن ذكر الأسماء الأربعة.

ومن كمال بيانه ﷺ وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به: تمثيله الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس، وهذا كثير في كلامه، كقوله في حديث علي بن أبي طالب: «سل اللَّه الهدى والسداد، وافكر بالهدى هدايتك الطريق، بالسداد سداد السهم» إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل اللَّه الهدى إلى طريق رضاه وجنته: كونه مسافراً وقد ضل عن الطريق ولا يدري أين يتوجه فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر وحاجة المسافر إلى اللَّه سبحانه: إلى أن يهديه تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها.

وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامي السهم إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه فقد سدد سهمه وأصاب ولم يقع باطلاً، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه.

وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا، فمنه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: 197] أمر الحجاج أن يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة هو التقوى، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه،

فكذلك المسافر إلى اللَّه تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: 26] جمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن وكمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: 123] فنفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ [يوسف: 32] فأرتهن جماله الظاهر، ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: 32] فأخبرت عن جماله الباطن بعفته فأخبرتهن بجمال باطنه وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه ﷺ بقوله: «اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، واللَّه تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه ﷺ: «كان إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك»[1]، وفي هذا من السر واللَّه أعلم: أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد اللَّه عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه وخفة البدن وراحته وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه، وأسرار كلماته وأدعيته ﷺ فوق ما يخطر بالبال[2].

---

(1) أبو داود (30)، في الطهارة، باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء، والترمذي (7)، في الطهارة، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، وقال: «حسن غريب»، وصححه الألباني.

(2) إغاثة اللهفان (1/ 57 ـ 59).

فصل

في الدعاء والقدر

❑ **هاهنا سؤال مشهور، وهو:**

أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدْعُ، وإن لم يكن قد قُدر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه.

وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم:

إن كان الشبع والري قد قُدِّرا لك فلا بد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدرا لم يقعا، أكلت أو لم تأكل.

وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن؛ فلا حاجة إلى التزوج والتسري. وهلم جرا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

وتكايس[1] بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب اللَّه عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجهٍ ما، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب. وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها اللَّه سبحانه أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق اللَّه العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت، وهذا كما إذا رأينا غيماً أسود بارداً في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

---

(1) أي تظرَّف.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سبباً البتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه، إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي، وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب: أن هاهنا قسماً ثالثاً، غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدّر قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء. فلم يقدر مجرداً عن سببه، ولكن قدّر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له[1].

(1) الداء والدواء (35 ـ 37).